المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

مِن صُورِ الصِّراعِ وتَجَلِّياتِه في الشِّعرِ الأَنْدلُسي قراءةٌ في نَماذِج مُختارة

From the images of conflict and its manifestations in Andalusian poetry Reading in selected forms

بقلم الدكتور

إبراهيم حسين أبو سريع إسماعيل

أستاذُ الأدبِ الأندلسيِّ المُشارِك ـ قسمُ اللُّغةِ العربيةِ ـ كليةُ الآدابِ
جامعةُ الجوفِ ـ المملكةُ العربيةُ السُّعُودِيَّةُ

الجزء الثالث (إصدار يونيو ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مِن صُورِ الصِّراعِ وتَجَلِّياته في الشِّعرِ الأَنْدلُسيِّ
قراءةٌ في نَماذِجَ مُختارةٍ

إبراهيم حسين أبو سريع إسماعيل

الأدب الأندلسي ـ قسمُ اللُّغة العربية ـ كليةُ الآداب ـ جامعةُ الجوف ـ المملكةُ العربيةُ السَّعُوديَّةُ

البريد الإلكتروني : ihismail@ju.edu.sa

الملخص

كَانَ للحياةِ الثَّقافيةِ والاجتماعيةِ، وتَعدُّدِ عَناصرِ المجتمعِ الأندلسيِّ، وشُيوعِ الحريةِ الفكريةِ، وإجلالِ العلماءِ وتوقيرِهم ، والتَّعصُّبِ لمذهبِهم، أو اتجاهِهم الفكريِّ من قِبَلِ تلامذتِهم، ومحاولةِ إظهارِ التَّفوق على كُلِّ مَشرقِيٍّ وَافِدٌ على الأندلس، كما كانَ للحُروبِ المستمرةِ بينَ المسلمينَ والممالكِ الإسبانيةِ ــ كلُّ ذلك وغيرُه ــ أَسهُمٌ في برُوزِ صُورِ الصِّراعِ، وتَباينِ أشكالِهِ التي تَجلَّتْ على الأدبِ الأندلسيِّ بصفةٍ عامةٍ، والشِّعرِ منه بوَجْهٍ خاصٍّ.

مِن هُنا، تهدفُ هذه الدِّراسةُ إلى البحثِ عن صُورِ الصِّراعِ في الشِّعرِ الأندلسيِّ، وبيانِ دَورِ الشعرِ في نقلِها، والكشفِ عنها، مع الوُقوفِ بالدَّرسِ والتَّحليلِ على أهمِّ الأشكالِ والموضوعاتِ الشِّعريةِ التي تَجلَّتْ فيها هذه الصُّورِ.

وقد وظِّف المنهج التَّكامليّ للإيفاء بمتطلَّبات هذه الدِّراسة، وكان مِن أَبرزِ نتائجِها؛: أنَّ للصِّراعِ صُورًا كثيرةً؛ تقدحُ شراراتُه بين أيِّ متباينين، فينقلُها الشعرُ بدورِه في صورةِ مديحٍ لأنصارِ الفريق، أو هجاءٍ للخُصومِ وأتباعِهم، أو في صورةِ نثرٍ فنيٍّ أو تأليفيٍّ، مع الفرق في اختلافِ دوافعِ الصراعِ: فكريةٍ كانت، أم نفسيةٍ، أم دينيةٍ، وأُسلوبِ الرَّدِّ وآليتِه، والقالبِ الذي تصبُّ فيه هذه الأشكالُ الصراعيةُ، وكانَ للتَّمسُّكِ بالمبادئِ الإسلاميةِ، والتَّحلِّي بالأخلاقِ العربيةِ الأصيلةِ عندَ الأندلسيينَ أثرٌ بالغٌ في صِبغةِ هذه الصُّورِ بصِبغةِ الالتزامِ، وإحلالِ الوُدِّ، والإخاءِ، والمواطنةِ، والإنصافِ، محلَ الكُرهِ والبُغضِ، والعداوةِ حتى مع غيرِ المسلمينَ.

الكلمات المفتاحية: الأندلسُ، الصِّراعُ ، الشِّعرُ ، الأدبُ.

From the images of conflict and its manifestations in Andalusian poetry Reading in selected forms

Ibrahim Hussein Abu Saree Ismail

Andalusian Literature - Department of Arabic Language - College of Arts - Al-Jouf University - Kingdom of Saudi Arabia

Email: ihismail@ju.edu.sa

Abstract

The cultural and social life, the multiplicity of the elements of the Andalusian society, the prevalence of intellectual freedom, the reverence and reverence for scholars, the intolerance of their doctrine or their intellectual orientation on the part of their students, and the attempt to show superiority over every Levantine who came to Andalusia As was the constant wars between the Muslims and the Spanish kingdoms - all of that and more Contributed to the emergence of images of conflict, and the divergence of its forms that were manifested in Andalusian literature in general, and poetry in particular.

From here, this study aims to search for images of conflict in Andalusian poetry, and to explain the role of poetry in conveying and revealing them, while studying and analyzing the most important poetic forms and themes in which these images were manifested.

The integrative approach was employed to fulfill the requirements of this study, and one of its most prominent results was: that conflict has many forms; Its sparks ignite between any disparate people, and the poetry conveys them in turn in the form of praising the supporters of the team, or satirizing the opponents and their followers, or in the form of artistic or authorial prose, with the difference in the different motives of the conflict: intellectual, psychological, or religious, and the method and mechanism of response, and the template In which these forms of conflict pour, and the adherence to Islamic principles, and the authentic Arab morals of the Andalusians had a great impact in dyeing these images with the dye of commitment, and replacing friendliness, brotherhood, citizenship, and fairness, in place of hate and hatred, and enmity even with non-Muslims.

Keywords: Andalusia, conflict, poetry, literature.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المُقدمةُ:

الحمدُ للهِ الذي إذا أرادَ أمرًا انفرجَ بابُهُ، والشكرُ والثناءُ الحسنُ على توفيقِهِ وإحسانِهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدِنَا محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ، أما **بعد:**

فالشِّعرُ مِرآةٌ صادقةٌ تعكسُ ما يُحيطُ بالشاعرِ اجتماعيًّا، وسياسيًّا، وفكريًّا ونفسيًّا، ولا ريبَ في ذلكَ؛ فالشِّعرُ ديوانُ العربِ، وأحدُ أهمِّ معالمِ هذه الأمَّـةِ، وسِجِلِها الحافلِ الذي سجَّلوا فيه حياتَهم، ومعـارفَهم، وحـروبَهم، وعـاداتِهم، وتقاليدَهم ،وتجاربَهم المختلفةَ.

وإذا كانَ الشِّعرُ كذلكَ، فإنَّهُ قدْ أدَّى وظيفتَه في البيئةِ الأدبيةِ الأندلسيةِ من نقلِهِ لنا، وإعطائنا صورةً واضحةً للحياةِ الأندلسيةِ العامـةِ بكُـلِّ تفاصـيلِها، وجوانِبِها المتناقضةِ منها وغيرِ المتناقضة، كما صوَّرَ الحياةَ الجادةَ واللّاهيةَ، ولا غَروَ في ذلك إذا عَرَفنا أنَّ الشعرَ قدْ تَغَلْغَلَ في حياةِ الأندلسيينَ، وجَرَى علـى ألسنةِ العامةِ، والخاصةِ بما أُتيحَ لهم من أسبابِهِ، وتوفُّرِ دواعيه التـي حَرَّكـتْ قرائحَهم، ومَنَحَتْهم صُورًا شعريةً لا نجدُها إلا عندَ الشعراءِ الذين يُضَاهى بهـم الفحولُ في المشرقِ والمغربِ، بل لقد وصلَ شغفُ الأندلسيينَ به، وتفنُنُهم فيه أنْ أَنطقُوا به غيرَ الإنسانِ، وقامَ عندَهم مقامَ لُغةِ الجدلِ والمناظرات، وكانَ من نِتاجِ ذلك أنْ لمعِ في كُلِّ مدينةٍ من مُدنِ الأندلسِ عددٌ مـن الشـعراءِ الكبـارِ، والكُتَّابِ البُلغاءِ.

وقد كانَ للحياةِ الاجتماعيةِ والثقافيةِ بكلِّ ألوانِها، وشُيُوعِ الحريةِ الفكريـةِ في بعضِ العُصورِ، وانتشارِ العُلومِ الفلسفيةِ، وإجـلالِ العلمـاءِ، وتـوقيرِهم، والتَّعصُّبِ لمذهبِهِم، أو اتجاهِهِم الفكريِّ من قبلِ تلامذتِهم، ومحاولـةِ إظهـارِ

التَّفوقِ على كُلِّ مَشرقِيٍّ وافدٌ على الأندلسِ، والتَّوسع في التَرَاجِمِ العامةِ للمفكرينَ والأدباءِ، كما كانَ للحُروبِ المستمرةِ بينَ المسلمينَ، وأهلِ البلادِ الأصليينَ الذين يتربصونَ بالمسلمينَ فرصةٌ سانحةٌ؛ لإزالتِهم من الوُجُودِ الأندلسيِّ، كلُّ ذلك وغيرُه أَدَّى إلى تعدُّدِ صُورِ الصراعِ ،وتبايُنِ أشكالِه التي تَجلَّتْ على الأدبِ الأندلسيِّ بصفةٍ عامةٍ، والشعرِ منه بوجهٍ خاصٍّ.

والمطَّلِعُ على الشعرِ الأندلسيِّ، وهندستِهِ الشكليةِ، والبنائيةِ، وما فيه من موضوعاتٍ، وأغراضٍ وقضايا؛ لا تخطئُهُ ملاحظةُ تَعدُّدِ صُورِ الصراعِ وأشكالِهِ التي تَتَنوعُ بتنوُعِ ما تَنُوءُ به من تجاربَ تُعَبرُ عن فلسفتِهم في الحياةِ، ورؤيتِهم للوُجُودِ.

ولأجلِ ذلك، فإنَّ هذه الدراسةَ ستبحثُ عن صُورِ الصِّراعِ التي تَجلَّتْ في الشعرِ الأندلسيِّ، وبَثَّ فيها أصحابُها كُلَّ ما يَجيشُ في صُدُورِهِم من معاني الحُبِّ والبُغضِ وغيرِها من المتناقضاتِ، والمشاعرِ التي تَنْتَابُ النَّفسَ البشريةَ في جميعِ أحوالِها.

وقد دفعني إلى اختيارِ هذه الدراسةِ رأيٌ تَكوَّنَ عندي ــ من أيامِ الطَّلبِ ــ عن العُدوتينِ الأندلسيةِ والمغربيةِ من خِلالِ ما اطَّلعتُ عليهِ من تراثٍ أدبيٍّ شعرًا كان أو نثرًا؛ وَذَلكَ أَنِّي على يقينٍ بأنَّ هذا القُطرَ شَهِدَ ميلادًا جديدًا لفُنونٍ أدبيةٍ، وتطويرًا لأغراضٍ تقليديةٍ أَضفَى الأندلسيونَ عليها إبداعًا، وتفوقًا على غيرِهم، إضافةً إلى ظُهُورِ أسماءَ لأعلامٍ كِبارٍ في دُنيا الأدبِ واللُّغةِ، وغيرِها من التَّخَصُّصَاتِ التي تَنَأى بما شَاعَ عندَ بعضِ الباحثينَ من تقليدِ الأندلسيينَ للمَشارِقةِ، ولا مَجالَ لذكرِ أمثلةٍ، أو أسماءَ على ذلك هنا؛ فليس هذا ما يهدفُ إليه البحثُ.

وقد عَزَّزَ عندي هذا الرأيَ ما وَقَفْتُ عليهِ مِن صُورِ الصِّراعِ وأشكالِهِ المتنوعةِ في تُراثِ الأندلسيينَ الشعريِّ، إضافةً لما وَجَدْتُهُ من اختلافٍ في دوافِعِ هذه الصُّورِ عندَ الشعراءِ، فقد وجدتُ أنَّ بعضَهم تناولها في مَعرِضِ صراعِه مع الآخرِ، ومنهم مَنْ تناولها في مَعرِضِ صراعِه مع نفسِه، ومنهم مَنْ تناولها في مَعْرِضِ صراعِهِ مع المنتَمِينَ لمجالِهِ المَعرفيِّ، ولذا فالقيامُ بهذه الدِّراسةِ حاجةٌ مُلحةٌ؛ لخدمةِ التُّراثِ الشِّعريِّ الأندلسيِّ تحليلًا ونقدًا.

وقد كانَ ذلك في محورينِ تَسبقهُما مقدمةٌ وتمهيدٌ، وتليهما خاتمةٌ أودعتُها أبرزَ النتائجِ التي اهتديتُ إليها، ثُمَّ ذَيَّلْتُ البحثَ بثبتٍ يشتملُ على أهمِّ المصادرِ والمراجعِ التي اعتمدتُ عليها.

منهجُ البحثِ :أمَّا المنهجُ المتَّبَعُ في هذه الدراسةِ فهو المنهجُ التَّكامليِّ، ولنْ أقفَ عندَ كُلِّ قصيدةٍ لحالِها،كما أنَّنا لنْ نقفَ عندَ شاعرٍ معينٍ، أو عصرٍ أندلسيٍّ بعينِهِ، ولكنَّنا سَنُورِدُ بعضَ الشواهدِ الممثِّلَةِ للبيئةِ الأدبيةِ الأندلسيةِ، وبالقَدْرِ الذي يَخدِمُ فكرةَ البحثِ، كما أنَّنا سَنُورِدُ بعضَ النُّصُوصِ لشعراءَ مغمورينَ من العُدوةِ المغربيةِ، عَاشُوا قِسْطًا من حياتِهم في الأندلسِ، وتَفَاعَلُوا مع قَضَايَاها التي بَرَزَ فيها عُنْصرُ الصِّراعِ واضحًا.

أسئلةُ البحثِ :جاءتْ هذه الدراسةُ) من صُورِ الصراعِ، وتجلياتِه في الشعرِ الأندلسيِّ(؛ لتجيبَ عن عِدَّةِ أسئلةٍ، منها:

ــ ما أبرزُ أشكالِ الصراعِ التي شغلتْ حيزًا واسعًا على الساحةِ الشعريةِ؟ وكيفَ تَجَلَّتْ في النِّتاجِ الشعريِّ لشعراءِ الأندلسِ؟ وهل تجلتْ صُورِ الصِّراعِ على الشعرِ فقط، أم كانَ للنَّثر حَظُّهُ ونصيبُه؟

ــ هل سيطرتْ الرُّوحُ الإسلاميةُ على كُلِّ صورِ الصراعِ في النتاجِ الشعريِّ لشعراءِ الأندلسِ ؟ وهل كانَ الشاعرُ الأندلسيُّ مُنصِفًا، وأشادَ بقُوةِ خَصْمِه المتصارعِ معه؟ وإذا كانَ مُنصِفًا، ما الدَّافعُ لهذا الإنصافِ؟

ــ هل جاءتْ صورُ الصراعِ في قصائدَ كاملةٍ تحتَ هذا الاسمِ، أم أنَّها وردتْ في ثنايا قصائدَ أخرى مُتعددةِ الأغراضِ ؟

ــ **أهدافُ البحثِ**: كذلك جاءَ هذا البحثُ؛ لتحقيقِ عِدَّةِ أهدافٍ، منها:

ــ الكشفُ عن صورِ الصراعِ، وتجلياتِه في الشعرِ الأندلسيِّ، والوُقُوفِ عندها بالدرسِ والتَّحليلِ.

ــ بيانُ أوجهِ التفاعلِ بين الشاعرِ الأندلسيِّ، والقضايا العامةِ في مجتمعِه.

ــ إلقاءُ الضَّوءِ على أبرزِ القضايا الصِّراعيةِ التي شغلتْ بالَ الشاعرِ الأندلسيِّ، وإبرازِ سماتِها، واستنتاجِ دَلالتِها.

ــ **حُدودِ البحثِ** :ومِن أجلِ تحقيقِ هذه الأهدافِ حاولتُ تحديدَ الموضوعِ زمنيًّا، ومكانيًّا، وموضوعيًّا:

ــ **تحديدُ الموضوعِ زمنيًّا ومكانيًّا**: فمن ناحيةِ التَّحديدِ الزمنيِّ فقد اخترتُ بعضَ النَّماذجِ الممثِّلَةِ للصِّراعِ بالقَدْرِ الذي يخدمُ فكرةُ البحثِ، ولم أتقيدْ بعصرٍ بعينِه؛ إنَّما كانَ لفترةِ السُّقُوطِ حظُّها الوافرُ من هذه النَّماذجِ.

وبالنِّسبةِ للمكانِ، فقد كانتْ الأندلسُ بحدودِها المعروفةِ جغرافيًّا هي محورِ الحديثِ، لا أَعْبرُ إلى العُدوةِ المغربيةِ إلَّا إذا عرضَ عارضٌ على سبيلِ المقارنةِ، فاضطُّررتُ إلى ذلك اضطرارًا، والمعلومُ أنَّ المغربَ في حُدودِه الحاليةِ ليس هو المقصودُ في العُصورِ الوُسطى؛ لأنَّ المغربَ في عُرْفِ القدماءِ كانَ يعني المغربَ بأقطارِه الثَّلاثةِ، ومعَهم الأندلس.

ــ **أمَّا الحدودُ الموضوعيةُ**، فقدْ وَقَفَتْ الدراسةُ عندَ بعضِ النَّماذجِ المختارَةِ، والممثِّلَةِ للصِّراعِ، وتَجلِّياتِه في الشِّعرِ الأندلسيِّ.

ــ **أهميةُ البحثِ** :تَكمُنُ أهميةُ هذا البحثِ في تناولِه لصورِ الصراعِ، وأشكالِه التي تجلتْ في النِّتاجِ الشعريِّ لشعراءِ الأندلسِ بالدرسِ والتحليلِ، إضافةً

إلى الوُقوفِ على أبرزِ القضايا الصِّراعيةِ التي شغلتْ بالَ الشاعرِ الأندلسيِّ مع الإشارةِ إلى بعضِ اللَّمساتِ النقديةِ التي وردتْ في ثَنَايا هذه النُّصوصِ الصِّراعيةِ، ولَفْتِ النَّظرِ إلى ما خَلَفَه أدباءُ الأندلسِ من أشعارٍ ،كانتْ انعكاسًا للحياةِ العامةِ فكريًّا، وثقافيًّا، ودينيًّا، وعلميًّا، ونفسيًّا.

ــ **أدواتُ البحثِ وإجراءاتُهُ** :أمَّا عن الأدواتِ، والإجراءاتِ التي سَنستخدِمُها في هذا البحثِ فإنَّها تَتَمثلُ في:

ــ جمعِ النُّصوصِ الشعريةِ التي تُعالِجُ صُورَ الصِّراعِ العامةِ، والتَّأكدِ من صحةِ نسبةِ النصوصِ لأصحابِها، وذلك بالرُّجُوعِ إلى كُتُبِ التُّراثِ الأندلسيِّ أدبًا وتاريخًا.

ــ البحثِ في كُتبِ التَّراجمِ والأعلامِ.

ــ تصنيفِ النصوصِ الصراعيةِ، ووضْعِ كُلِّ نصٍّ ضمنَ دوافِعِه وأسبابِه.

ــ مُتابعةِ ما صَدرَ حديثًا عن دُورِ النَّشرِ التي تهتمُ بنشرِ التراثِ الأندلسيِّ والمغربيِّ.

ــ **الدِّراساتُ السابقةُ**:

ــ القصيدةُ الأندلسيةُ خلالَ القرنِ الثامنِ الهجريِّ (الظواهرُ والقضايا والأبنيةُ) ، د .عبد الحميد عبد الله الهرامة.

ــ مفهومُ الصِّراعِ دراسةٌ في الأُصُولِ النَّظريةِ للأسبابِ والأنواعِ، د .منير محمود بدوي السيد.

ــ قراءةُ النَّصِّ الأدبيِّ في ضَوءِ فلسفةِ التَّفكيكِ، د .عزيز عدمان.

ــ الاتجاهُ الإسلاميُّ في الشعرِ الأندلسيِّ في عَهدَي مُلُوكِ الطوائفِ والمُرابطينَ، د .منجد مصطفى بهجت.

ــ ملامحُ الصِّراعِ في شعرِ ابنِ الجزارِ السَّرَقُسطيِّ، سعيد بن مسفر المالكي.

ــ في التَّسامحِ بينِ المسلمينَ والنصارى من خلالِ الشعرِ الأندلسيِّ، د . جمعة شيخة.

ــ الأصواتُ النِّضاليةِ، والانهزاميةِ في الشعرِ الأندلسيِّ، د .الطرايسي أحمد أعراب.

ــ صورةُ المدينةِ الإسلاميةِ المحتَلَّةِ في الشعرِ الأندلسيِّ في عهدِ المُرابطينَ والمُوحدينَ، د .عبد الرحيم حمدان.

ومن الإنصافِ الإشادةُ بجُهُودِ مَنْ سبقني من الباحثينَ الذين عَكفُوا على تُراثِ الأندلسيينَ الشعريِّ بالدَّرسِ، والتَّحقيقِ ،والنَّقدِ، والتَّحليلِ، فقد كانَ لأبحاثِهم دورٌ كبيرٌ في رفدِ هذه الدراسةِ بالعديدِ من الأفكارِ والمحاورِ.

والحمدُ للهِ الَّذي بِنعمتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ

تمهيد:

الصراع فطرة إنسانية وسنة من سنن الله تعالى في كونه، وقد ظهر مع وجود الإنسان على هذه المعمورة، وغالبا ما تدور رحاه بين أي متناقضين أو خصمين بدوافع فكرية أو اجتماعية أو دينية أو نفسية، أما عن لفظة الصراع في اللغة؛ فهي كلمة مشتقة من الفعل الثلاثي صرع ومصدرها الصَّرْع ومعناه الطرح بالأرض ، والجمع صَرْعَى، والمصَارَعَةُ والصِّراعُ: معالجتهما أيهما يَصْرعُ صاحبه، ورجل صرَّاعٌ وصَريعٌ بيِّن الصَّراعَةِ ، وصُرَعةٌ: كثير الصَّرع لأقرانِه ويقال: صَرَعَ الباب: جعل له مِصْرَاعَينِ، والمِصْرَاعَانِ من الشعر ما كان فيه قافيتان في بيت واحد والتَّصْرِيعُ في الشعر: تقفية المصراع الأول مأخوذ من مصراع الباب، وهما مُصرَّعان، وإنما وقع التصريع في الشعر ليدُلَّ على أن صاحبه مبتدئٌ إما قصة وإما قصيدة. (١)

أما الصراع اصطلاحا؛ فالشعر يعكس ــ كغيره من الفنون الأدبية ــ صورة الواقع والمجتمع الذي يعيش فيه الشاعر بما فيه من صراع نفسي وفكري واجتماعي وديني وسياسي، فالصراع بصفة عامة عبارة عن تضاد أو تناقض في الأفكار والمعتقدات "فهو تنشيط دافعين في آن واحد يتطلبان ضروبا متعارضة من السلوك، وقد يكون الصّراع قائما بين رغبتين أو بين هدفين أو بين وسيلتين "(٢)، والصراع لا يقف عند حد معين " بل إن له أبعاداً مختلفة تتغير وفقا لطبيعة الحالة التي يعيشها الإنسان، والظروف التي يعاني منها، فلا يكاد يتجاوز مرحلة من مراحل حياته إلا ويواجه نوعاً جديداً وتحديا آخر في صراعه الوجودي مع هذه الحياة."(٣)

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، ١٩٧/٨، مادة صرع.

(٢) الموسوعة العربية الميسرة، ١١٢١/٢

(٣) المالكي، سعيد بن مسفر: ملامح الصراع في شعر ابن الجزار السرقسطي، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، ٢٠١٨، ج١٩، ع١، ص٣٤١

والصراع في الشعر الأندلسي كان صراعا عاما وبصور ودوافع مختلفة، ونصوصه ذات دلالات وقدرات تنبئ عن مكنونها في كل قراءة جديدة بما تحمله من قدرة " على استمرار الحيوية في الإفراز الدلالي من خلال نص مفتوح متحرك نابض بالحياة، وهذا يظهر بوضوح خاصية النصوص الرفيعة"[١] التي لا تفصح عن مكنونها إلا لقارئ يمتلك أدوات الكشف عن الدلالات العامة بما فيها دلالة الصراع .

ولعل مفهوم الصراع وأشكاله المتعددة وتجلياته في نتاج الشعراء الأندلسيين يتشكل من خلال نظرة الشاعر الأندلسي لفلسفة الوجود التي تقوم على مبدأ الصراع والسعي إلى البقاء وإثبات الذات " فيبدأ في التعامل مع الكون المحيط به والبيئة التي يعيشها وفقا لمكونات المفهوم الذي تشكل في عقله ووجدانه لطبيعة الصراع، وقد يظهر الأمر جليا عندما يكون ذلك الإنسان شاعرا يرسم الوجود بتناقضاته المختلفة في لوحات شعرية " [٢]

والمطلع على الأدب الأندلسي ــ شعرا ونثرا ــ يلمس قضية مهمة أو ظاهرة تكاد تكون عامة في معظم النصوص؛ هذه الظاهرة تتمثل في ما يصدر عن المواطن الأندلسي من تصرفات سلبية تجاه الآخر أو إيجابية تجاه وطنه ودينه، وهذه التصرفات يصدر عنها أشكال مختلفة من الصراعات التي "لها صلة كبيرة بالمشاعر الإنسانية، ويظهر هذا التوجه الإنساني في النصوص الأندلسية ذا فاعلية وحركة محورية تظهر بسببها حركة صراع دائمة بين عناصر إنسانية مختلفة".[٣]

---

(١) عدمان، عزيز: قراءة النص الأدبي في ضوء فلسفة التفكيك، عالم الفكر، ٢٠٠٤، ع٢، ج٣٣، ، ص٥٣

(٢) المالكي، سعيد بن مسفر: ملامح الصراع في شعر ابن الجزار السرقسطي، ص٣٤١

(٣) الرباعي، عبد القادر أحمد، شعرية الصراع في القصيدة الأندلسية .. القرن الخامس الهجري نموذجا، دكتوراة جامعة اليرموك، سنة ٢٠٠٥م، ص١٨

- المحور الأول: **الصراع الفكري والاجتماعي**.

الصراع في بعده العام تبدأ إرهاصاته من التنافس بين أي طرفين، وهنا قد يكون أحد الطرفين متمثلا في فرد، أو أسرة، أو ذرية أو نسل بشرى معين، أو مجتمع كامل إضافة إلى ذلك فإنه قد يكون طرف الصراع طبقة اجتماعية، أو أفكارا، أو منظمة سياسية، والصراع هنا يرتبط بالرغبات أو الأهداف غير المتوافقة، والتي تتميز بقدر من الاستمرارية والديمومة يجعلها تتميز عن المنازعات قصيرة التي تنتج عن مسببات وقتية أو لحظية [١]

جدير بالذكر أن أشكال الصراع وصوره في الشعر الأندلسي كانت على امتداد فترة الوجود العربي في الأندلس أيضا كانت على امتداد الفكر والثقافة والديانات والسياسة والمذاهب " وغيرها من أوجه المغايرة الفكرية التي تنعكس على الواقع في صورة نزاع حربي أو كلامي[٢]" ، لأن شغف الأندلسيين بالشعر وصل عندهم لدرجة قيامه مقام لغة الجدل والمناظرات وقد تجلى ذلك في معالجة الشعراء لبعض القضايا الفلسفية والنقاشات الجدالية معالجة شعرية تمثلت في صورة صراع مع الآخر. ومن أبرز الشواهد الدالة على ذلك قصيدة ابن عبد ربه في الفلكي أبي عبيدة [٣] وطائفته رافضا لبعض قضاياهم وآرائهم الجغرافية والفلكية، وفيها يقول:

---

(١) ينظر: إسماعيل، عز الدين: الفن والإنسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٨، وحنا، فادي بطرس: الأساليب المتنوعة للتعبير عن مفهوم الصراع في فن التصوير، مجلة التربية النوعية، جامعة كفر الشيخ، ٢٠١٩،ع٢، ص٤٤٢

(٢) الهرامة، عبد الحميد عبد الله: القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري .. الظواهر والقضايا والأبنية، دار الكاتب، طرابلس، ط٢، ١٩٩٩، ٢٤٥/١

(٣) هو مسلم بن أحمد الليثي المعرف بصاحب القبلة، كان عالما بالحساب والنجوم، انظر ترجمته في: ابن الفرضي، تاريخ العلماء، ترجمة١٤٢٠، والحميدي: جذوة المقتبس، ترجمة ٨٢٢

أبا عبيدة ما المسؤول عـــن خبر تحكيه إلا سواء والذي ســـألا
أبيت إلا شذوذا عن جمـــاعتنا ولم يصب راي من أرجى ولا اعتزلا
كذلك القبلة الأولى مبـــدلة وقد أبيت فما تبغي بها بـــدلا
زعمت بهرم أو بيدخت يرزقنـا لا بالعطار او مريخ او زحـــلا
وقلت ان جميع الخلق فـــي فلك بهم يحيط وفيهم يقسم الأجـــلا
والارض كوريَّة حف السماء بها فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا[1]

فهذه صورة من صور الصراع في الأفكار العلمية والشاعر ابن عبـد ربه في رأيه هنا مخالف لآراء الفلكيين ولم يقتنع " بما يقول به العلماء مـن أن الأرض كروية يحيط بهاء فضاء السماء من كل جهاتها، وأنها أشبه بنقطة في وسط دائرة، وأن الفصول تتعاقب على الأرض وتختلف من مكان لآخـر باختلاف موقع هذا المكان شمالا وجنوبا" [2] ويستمر الشاعر فـي صـراعه ورفضه لأفكار أبي عبيدة وأنصاره ثم يمضي مبرهنا على ذلك بـأن شـهر كانون يكون في كل من صنعاء وقرطبة بردا برغم أن هذه المدينة في اليمن وتلك في شبه الجزيرة الأيبيرية، يقول من القصيدة نفسها:

صيف الجنوب شتاء للشمال بها قـــد صار بينهما هذا وذا دولا
فما لكانون في صنعا وقرطـبة بردا وأيلول يذكي فيهما الشعلا

(١) وردت هذه الأبيات في تاريخ العلماء لابن الفرضي، ص١٢٦،، وفي طبقات الأمم لصـاعد الأندلسي ص٦٤، ٦٥. وهناك بعض اختلاف بين النص الوارد في تاريخ العلماء والوارد في طبقات الأمم. ينظر: هيكل، أحمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥، ص٢١٥

(٢) هيكل، أحمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ص ٢١٥

وقد نتج عن هذه الصورة التي احتدم فيها الجدال بين علماء الفلك والآراء المضادة لهم ــ كما سنرى فيما ينتج عن غيرها ــ شعر الهجاء بين الفريقين، وكان من تجلياته في شعر سعيد بن عبد الرحمن، قوله:

لما عدمت مؤانسا وجليسا ... نادمت بقراطا وجالينوسا

وجعلت كتبهما شفاء تفردي ... وهما الشفاء لكل جرح يوسى (١)

فرد عليه عمه ابن عبد ربه قائلا:

ألفيت بقراطا وجالينوسا ... لا يأكلان ويرزآن جليسا

فجعلتهم دون الأقارب جنة ... ورضيت منهم صاحبا وجليسا

وأظن بخلك لا يرى لك تاركا ... حتى تجالس بعدهم إبليسا(٢)

والصراع ــ أيا كانت صورته ــ لا يأتي من فراغ ولا بد له من دوافع اجتماعية أو فكرية أو دينية أو نفسية أو غير ذلك، وكان منها أن نشطت الفلسفة ونالت اهتمام كثير من أهل الفكر في بعض العصور الأندلسية، منهم: محمد بن مفرج المعافري، ورشيد بن محمد، وأبان بن عثمان، ولسان الدين بن الخطيب وابن باجة وغيرهم؛ وفي مقابل هذا الحراك الفلسفي جاء الرد على الأفكار والآراء الفلسفية في صورة قصائد ومقطعات ــ وهذا ما يهمنا ــ أو في صورة تأليف الكتب ككتاب "السحب الواكفة في الرد على ما تضمنه المضنون به على غير أهله من اعتقاد الفلاسفة" الذي ألفه أبو بكر محمد بن

(١) الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد: طبقات الأمم، حققه وشرحه وذيله بالفهارس، لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩١٢، ص٨٨

(٢) طبقات الأمم: ١١٨، وابن عبد ربه: ديوانه، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩،ص١١١

منظور القيسي [١] أو كتاب "خنجر الإيمان ضد المسلمين واليهود " الذي ألفه الراهب الإسباني ديموندو مارتين[٢] . كل ذلك يدل على أن الصراع الفكـــري والديني والسياسي والمذهبي وجد في الأندلس على امتداد فترة الوجود العربي وكان الشعر ــ والنثر وهو محل الدراسة القادمة ــ هو المرآة الحقيقية التـــي صورت لنا أشكال هذا الصراع وطبيعته.

ومن أشكال الصراع الأخرى التي دارت في الأندلس وانعكست علـــى الشعر في صورة هجاء ذلك الصراع الذي دار بين الفلاسفة وأصحاب العلوم القديمة، ومنه قول الشاعر الـــفازازي في ذم علماء الفلسفة في عصره:

عجبا لمن ترك الحقيقة جانبـــا وغدا لأرباب الصواب مجانبا

وابتاع بالحق المصحح حاضـــرا ما شاء للزور المعلل غـــــائبا

فاقذف بأفلاطون أو رسطالـــس وذويهما تسلك طريقا لاحبا

ودع الفلاسفة الذميم جميعـــهم ومقالهم تأت الأحق الواجبا

يا طالب البرهان في أوضاعـهم أعزز علي بأن تعمر جـــانبا

فانظر بعقلك هل ترى متفلسفا فيمن ترى إلا دعيًا كـــاذبا

أعيته أعباء الشريعة شـــدة فارتد مسلوبا ويحسب سالبا(٣)

---

(١) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧، ١٧١/٢. وانظر في ذلك أيضا: الهرامـــة، عبـــد الحميد: القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري ،١/ ٢٥٢

(٢) ألف سنة ١٢٧٨م، انظر: الدراسات العربية في إسبانيا، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي، مجلة الثقافة العربية، طرابلس، ليبيا ١٩٧٤م، ص٣٨

(٣)آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي .. نصوص أدبية من القرن الهجري السابع، جمعها بعـــض تلاميذه في حياته، تقديم وتحقيق عبد الحميد الهرامة، دار قتيبة، ط١، ١٩٩١م، ص١٥٥

ومن صوره عند ابن حزم بعد أن كاد له بعض المتعصبين ــ نظرا لآرائه وأفكاره، عند المعتمد بن عباد الذي وقع تحت تأثيرهم فقام بحرق كتبه علنا ــ قوله:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل أن أنزل ويدفن في قبري

دعوني من إحراق رقٍ وكاغدٍ ... وقولوا بعلم كي يرى الناس بدري

وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون للّه من ستر(١)

وتأتي ظاهرة تقليد الأندلسيين للمشارقة كأحد أهم الأسباب التي أشعلت الصراع بين أقطاب المجال المعرفي الواحد في المشرق أو في الأندلس؛ وذلك لمحاولتهم إثبات الذات الأندلسية ونفي ما شاع عن الأندلسيين من المحاكاة والتقليد، وقد انعكس هذا الصراع في صورة قصائد ومقطعات ــ وهو ما يهمنا ــ أو في صورة نثر فني أو مؤلفات ألفها أصحابها في الانتصار لشيوخهم والرد على معارضيهم ككتاب :(الفيصل المنتضى المهزوز في الرد على من أنكر صيام النيروز)[٢] الذي ألفه ابن الفخار وكتاب (الإلماع في إفساد إجازة ابن الطباع) الذي ألفه أبو حيان في الانتصار لشيخه ولعل هذا الكتاب كان هو السبب في خروجه من الأندلس كما ذكر ذلك المقري التلمساني[٣]. وهنا لا بد أن نشير إلى أن الصراع بين أقطاب المجال المعرفي

(١) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق١ م١، ص١٤٤، والحموي: معجم الأدباء، ١٥٢/١٢، ١٥٣

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة في أخبار غرناطة، ٩٤/٣

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة في أخبار غرناطة ٤٦/٣، والمقري التلمساني، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٥٨٣/٢

الواحد أشعل فن المناظرات [١] وهو ما يعطينا صورة واضحة للحياة الفكرية الحافلة بأشكال الصراع وألوانه بين علماء الأندلس.

وللتدليل على أن صور الصراع لم تتجل فقط على الشعر وإنما انعكست أيضا على النثر الذي طُعِّم بالشعر؛ نأخذ مثالا على ذلك مناظرة (الرمي بالحصا والضرب بالعصا) [٢] التي جرت أحداثها بين ابن المرحل وابن أبي الربيع النحوي، وخلاصتها أن ابن أبي الربيع النحوي قد أنكر ورود "كان ماذا" في كلام العرب، وقال إن الصواب "ماذا كان " في حين أصر ابن المرحل [٣]على صحة هذا التركيب فألف كل من المتناظرين في شرح وجهة نظره، واكتست في عمومها بطابع الغضب والانفعال والسخرية، واعتمد فيها طرفي الصراع على ثقافة واسعة وقراءة عميقة في كتب اللغة والنحو، وقد طبعت هذه المناظرة بالطابع العلمي إذ التزم فيها ابن المرحل بإيراد حجج مناظره ابن أبي الربيع وإثبات تهكمه وردوده، ثم عقب على ذلك كله بحوار علمي تارة وتارة أخرى بشعر الهجاء والتهكم والسخرية [٤]

---

(١) المناظرات فن له علاقة وثيقة بفن النقد، ويراد به الكلام والآراء المتعارضة في موضوع ما يثير الجدل. انظر في ذلك: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ٣٩٠. ينظر أيضا مناظرات أخرى في نبيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص ٧٣، والمعيار المعرب والجامع المغرب، ٢٧١/٦

(٢) انظر المناظرة في: المقري، نفح الطيب، ١٤٥/٤، وكنون، عبد الله: النبوغ المغربي، ٥٥/٢

(٣) انظر في ترجمته وآثاره: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة في أخبار غرناطة ، ٣٢٨/١ ــ ٤٧٢، وابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ٣٠٨ ــ ٣٧٦، وابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص١٤، ٩٨، ١١٩، والمقري، أزهار الرياض، ٢٦٣/٣ .

(٤) تجلى الطابع التهكمي والانفعالي عند تعقيب ابن المرحل على مواضع الإساءة التي رماه بها ابن أبي ربيع، حيث سلبه بعض الفضائل ورماه بالقصور في بعض العلوم مثل: علم الحديث والأدب، كما وصف حججه بأنها غير واضحة ونعت نثره بأقبح النعوت وأشنعها، وهذا ما دعا أحمد المقري إلى القول بأن مناظرة ابن المرحل" فيها هنات لا ينبغي لعاقل أن يذكرها ولا لذي طي في البيان أن ينشرها". انظر: المقري، نفح الطيب، ١٤٥/١. والخطيب، إسماعيل: الحركة العلمية في سبتة خلال القرن السابع، جمعية البعث الإسلامي، المغرب ١٩٨٦، ص٢٩٥

والصراع بين أقطاب المجال المعرفي الواحد مهما اشتعلت نيرانه واتسعت فجوته إلا أنه لا يصبغ بصبغة الحقد والكره للطرف الآخر كما سنري في صراع النصارى وعدائهم الشديد لمسلمي الأندلس ويهمنا هنا مدى تجلي الصراع الفكري في الشعر الأندلسي وكيف صوره الشعراء لنا، ومن ذلك ما تناوله أبو حيان من صراع دائر بين اللغويين والنحويين والفقهاء وبعض الاتجاهات المنتشرة على الساحة الأدبية والمذهبية في عصره، يقول منتقدا صراعهم المستمر:

هم الناس شتى في المطالب لا ترى ... أخا همة إلا قد اختار مذهبا

فَمَن يَعتني بِالفِقهِ يَرأس إِذ يلي ... قَضاءً وَتَدريساً وَفُتيا وَمَنصِبا

كما انتقد علماء النحو، فقال:

وَمَن كانَ ذا حَظٍّ مِن النَحوِ وَاللُغا ... يَرى أَنَّهُ أَسنى الفَضائِلِ مَطلَبا

وَيزهى عَلى هَذا الأَنام لِأَنَّهُ ... يَرى هَمَجا في الناس مَن لَيسَ مُعرِبا

وَمَن كانَ بِالمَعقول مُشتغلاً يَرى ... جَميعَ الوَرى صُمّاً عَن الحَق غَيَّبا

فَإِن كانَ في النَحوين صاحبَ دِريَةٍ ... فَذاكَ الَّذي يُدعى الإِمام المهذَّبا

وَحافظ أَلفاظِ القِراءاتِ جاهِلٌ ... بِالإِعرابِ وَالمَعنى للإِقراءِ رُتِّبا

يرقِّقُ ما قَد فَخَّمُوا وَمفخِّمٌ ... لما رَقَّقوا لَم يَلقَ شَيخاً مُهذَّبا

يَرى أَنَّ نَظمَ الشاطِبي غايةُ المُنى ... وَلَم أَرَ نَظماً مِنهُ أَعصى وَأَصعَبا

يَظَلُّ الفَتى فيهِ سِنينَ عَديدَةً ... يُحاوِلُها فَهما فَيَبقى مُعَذَّبا

بِلُغزٍ وَأُحجِيّاتِ شُلشل شَمَردَلٍ ... وَدَغفَلِ أَسماءٍ عَن الفَهم حُجَّبا

وَقَد أولعَ الجُهّالُ فيهِ بِشَرحِهِ ... فَمِن شارِحٍ قَصراً وَآخَر أَطنَبا

ولم يسلم الشعراء أيضا من نقده فقال فيهم:

وَناظِمِ أَشعارٍ يَدورُ عَلى الوَرى ... بِذمٍّ وَمَدحٍ مُرهِبا أَو مُرغِّبا

يرى أَنَّ نظمَ الشعرِ أَسنى فَضيلَةً وَلَيسَ بِفَضلٍ ما بِطَبعٍ تركَّبا
وَراوي حِكاياتٍ لِناس تَقَـدَّمُوا غَدا وَاعِظاً يَشرو وَيَنشر مُطرِبا

حتى الأطباء نالهم انتقاده فقال فيهم:

وَمشتغلٍ بِالطبِّ قَد رامَ صَنعَةً قَليلاً جَداها ما أَشقَّ وَأَخيَبا
يَدور عَلى المَرضى وَيُحرز علَّة وَيَسأل ماذا كانَ عَنهُ تَسبَّبا
وَيَنهَبُ مِنهُ مالَهُ لا يـــهمُّه سواء لَدَيهِ أَن يَصِحَّ وَيَعطَبا[1]

لم يترك صاحبنا أي تخصص إلا وانتقده مقللا من شأنه وقيمة من يمارسه سواء في النحو أو الطب أو الفلسفة أو في العلوم الأخرى.

وهنا ملحوظة في غاية الأهمية وهي أنه من المألوف أن لكل شيخ مريديه ولكل عالم تلامذة يسيرون ــ في الغالب الأعم ــ على نهجه ويتبعون منهجه ويؤمنون بأفكاره، ومن الطبيعي أيضا أن يذب كل تلميذ عن أفكار أستاذه الذي أخذ العلم على يديه وسار في اتجاهه الأدبي أو الفكري؛ وهو ما نتج عنه شعر مدح الطالب لشيخه والشيخ لتلميذه والشاعر في هذا ــ أيا كان شيخا أو تلميذا ــ يحاول الانتصار للمذهب أو للاتجاه الذي عليه شيخه مع الكشف عن أخلاق ممدوحه ومستواه الفكري والنفسي إضافة إلى بعض المعاني الأخرى التي نراها في معظم قصائد المديح التقليدية ككرم أخلاق ممدوحه وشجاعته وثباته وغير ذلك.

وتظهر في هذه القصائد الصراعية ملامح المدح الخالص ــ الذي يختلف عن أنواع المديح الأخرى ــ النابع من العاطفة الصادقة التي لا يرمي الشاعر من ورائها إلى طلب العطاء أو تأميل في تحقيق رغبة من رغبات

(١) ديوان أبي حيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٦٩، ص١١٢

الدنيا، وإنما هدفه والغاية العظمى منه هو الانتصار للمذهب الذي عليه شيخه. وأكثر ما نجد هذه الأشعار في شعر الطلبة الذين يمدحون شيوخهم، أو في مدح الشيوخ لتلامذتهم، أو في مدح هؤلاء لأصحابهم، وفي كل الحالات لا يُعجب الشاعر عادة إلا بالعالم أو الشيخ الذي يؤمن بمذهبه ويتعصب لرأيه؛ ولهذا نجد الطالب يتعصب لشيخه ويرفعه إلى درجة الملوك وهنا لا يأخذنا العجب إذا صدرت عن هؤلاء الشعراء بعض الأوصاف والمعاني التي نسمها بالمغالاة والغرابة وتجاوز حدود الواقع، وذلك لأن الطالب معجب بشيخه مدافع عنه مخلص في حبه منتقدا من يخالفه ، ولأن عقله من عقله وعلمه مأخوذ من شيخه وسنرى كل هذه الصور قد تجلت في نتاج الشعراء.

ومن ذلك ما مدح به أبو الفضل التجاني شيخه أبا الفضل بن البراء والانتصار له وتفضيله على أهل زمانه في العلم والتقوى والورع وأنه محي رسوم العلم بعد اندثارها، فيقول:

ما في مشايخ عصرنا العلماء في ... شرق وغرب من يباري ابن البرا
الأروع الأتقى أبو الفضل الذي ... في فضله وتقاه إجماع الورى
مبدى رسوم العلم بعد عفائها ... ومبيد آثار العماية والمرا
لولاه ما وضح الحديث لنا ولا ... سنن النبي ولا المفصل فسرا
يروي فيروى الدين من ظمإ به ... فترى هشيم الروض منه أخضرا
مهما دجا الشك استنار ذكاؤه ... فبدا لمستهد شهابا نيرا[1]

(١) ابن رشيد السبتي: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق أحمد الحدادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ٢٠٠٣، ١١١/٦

ومن ذلك قول أبي عبد الله محمد بن يحيى في شيخه ابن عباد الرنـــدي وتفضيله على أهل زمانه:

أنوار صدقك في سر وفي علن أبقتك منفردا في أهل ذا الزمن

إذا تنوفس في حَلي وفي حُلل بذلت في حَلي علم أنفس الثمن

ولم تزل هكذا حتى أضفت إلى حسن السريرة حسن الظاهر الحَسَن(١)

ومن ذلك أيضا ما أجاب به ابن رشيد السبتي شيخه أبـــا الحســـن بـــن رزين:

مستظهر بك ذخرا منجبا كرما أبهى وأشرف مكسوب ومذخور

بزَّت مآثرك الباهي ترفعها فبان تقصير مكتوبي ومسطوري(٢)

ومما قاله ابن رشيد أيضا في مدح شيخه أبي بكر بن حبيش يشكره على ما له عليه من فضل:

وصلت أبا بكر غريبا لتونسا فأقررت عينا بالقدوم لتؤنسا

وقابلتموني بالقبول تفضلا فأنسيتني ذكر اغترابي مؤنسا(٣)

فهو يذكر ما قابله به ابن حبيش من الترحاب والتأنيس حتـــى توطـــدت العلاقة بينهما وتتابع السمر والجلوس للمذاكرة، ولم يجد ابن رشيد ما يكـــافئ به شيخه الجليل إلا قوله:

فشكر أبي بكر علي فريضة أؤديه في وقت الصباح وفي المسا

أؤسس حمدي والبيان بناؤه وأردف مدحي مردفا ومؤسسا(٤)

---

(١) الترغي، عبدالله المرابط، فهارس علماء المغرب منذ النشأةإلى نهاية القرنالثاني عشر للهجرة (منهجيتها ــ تطورهاــ قيمتها العلمية) منشورات كلية الآداب، تطوان، ط١، ١٩٩٩، ص٣٢٤

(٢) المصدر نفسه، ٨٠/٦

(٣) ابن رشيد السبتي: ملء العيبة، ٥/٢

(٤) المصدر نفسه، ٥/٢

ثم يشير إلى ما كان يمتاز به ابن حبيش من وقف شعره على مدح النبي حتى اشتهر له في ذلك الكثير من القصائد، ومنها قوله:

وأحرزت فضل السبق أول شأوه فكل بليغ أو بديع به ائتسى

بقيت لمدح المصطفى ناظما إذا تنفس صبح أو إذا الليل عسعسا[1]

وقد ذكرنا قبل قليل أن بعض الشعراء رفعوا شيوخهم إلى درجة الملوك؛ ونأخذ مثالا على ذلك ما مدح به الشاعر علي بن أحمد التاذفي شيخه بهاء الدين بن النحاس:

يا أيها الملك المولى الذي يده تكف كف العدا إن نابت النوب

العالم العامل الذي شهدت بفضله الفئتان العجم والعرب

كالغيث إن يأت أرضا وهي مجدبة يحيا بها حيوان الأرض والعشْب

لم يبق للخلق إلا أنت منتخب فليس تعمل إلا نحوك النجب

قد صح بين جميع الناس كلهم أن العلاء إلى عليالك ينتسب

قد شرف العلم قوما لا خلاق لهم وأنت تسمو بك الآداب والرتب[2]

وإذا عرفنا أن ابن النحاس هذا كان ممن رفع لواء العلم في العربية واللغة، أدركنا ما قصده التاذفي في شعره، ولعل هذا ما حمله على المبالغة والغلو في قوله:

لم يبق للخلق إلا أنت منتخب البيت.

ولعل الانتصار للرأي أو المذهب والصراع بين أقطاب المجال المعرفي الواحد هو ما جعل الطلاب يدافعون عن مشايخهم ويحلونهم المحل الأرفع وينساقون وراء انتصارهم لرأيهم أو مذهبهم في الإغراق والمبالغة، هذا فضلا

---

(١) المصدر نفسه، ٥/٢

(٢) ابن رشيد السبتي: ملء العيبة، ٣/ ٣٠

عن تبجيل المتعلم لمن علمه كمبدأ أساسي الأصل فيه أن يتحلى به طالب العلم وأن يكون منصفا في ذلك.

هذا عن بعض النصوص التي نتجت عن الصراع ممثلة في مدح الطالب شيخه انتصارا له واتباعا لمنهجه والسير على منواله ، أما عن النصوص التي مدح فيها الشيخ تلميذه وكانت ناتجة عن هذا الصراع أيضا، قول أبي الحسن بن رزين في تلميذه أبي الفضل التجاني:

يا متحفا من بره وبيانه بغنى العديم ونزهة المتبصر

أهديت لب منك السلام معطرا فشممتُ منه شذا النسيم الأعطر

سبقت بديهتك الروي مبرزا سبق المذكر والعتاق الضمر

لله من فضل حويت جميعه أو فضل نظم بالبديع محبر[1]

وقد كان أبو الفضل هذا ممن جمع إلى شخصيته القوية علما غزيرا وظرفا وكرما وحسن خلق على حد وصف صديقه ابن رشيد له في رحلته، ولهذا مدحه شيخه أبو الحسن بن رزين بذلك.

وهذا النوع من الشعر الذي يحمل في طياته شكلا من أشكال الصراع الفكري والتعصب للمذهب؛ يعد انعكاسا للتنافس بين أقطاب المجال المعرفي الواحد وصورة من صور الموالاة والانتصار للأستاذ؛ إذ إن تبادل الإعجاب بين الأستاذ وتلميذه كناية عن إيمانه بما عليه شيخه كما أن تسليمه بأفكاره كناية أيضا عن الانتصار له والتعصب لرأيه.

ومما نلاحظه على هذه القصائد عدم التكلف في استعمال المحسنات البديعية؛ لأن الشاعر لم يكن يهمه الزخرف والتنميق بقدر ما كان يهمه المعنى والفكرة والانتصار لشيخه أو لمذهبه، ولهذا لا نجد فيها كثيرا من صور

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ٨٣/٦

التكلف والافتنان والصنعة مثلما نرى في بعض القصائد والأغراض الأخرى، هذا بالإضافة إلى أننا لا نعثر فيها على صور كثيرة من المبالغة الممقوتة في وصف الممدوح، وإنما يغلب على معظم هذه القصائد نوع من التوازن، وحتى إذا جاء شيء من ذلك فإنه لا يخرج عن الذوق السليم. ومن ذلك قول ابن الحكيم في ابن حبيش:

من قدره في المجد معلوم فما ... قدر الكواكب أن يكون نعاله

وتقيم والدهر جار وفقكم ... ما عاقبت بكراته آصاله (١)

وهذا الصراع له صور كثيرة منها ما تجلى في صورة مديح من التلميذ لشيخه ومن الشيخ لتلميذه كما رأينا فيما سبق، ومنها ما تجلى في صورة هجاء، كقول ابن الجياب في متخصصي النحو واللغة، وأحد المنتسبين إليهم:

وآخر أقصى علمه ضرب زيده ... وما كان من ضرب لزيد ولا عمرو

يرى أنه حقا إمام لساننا ... وما حظه منه سوى النصب والجر (٢)

وهنا يقول الدكتور الهرامة:" ولم أجد من المناوئين لابن الجياب من يمكن أن ينصرف إليهم هذا التعريض، وهو نادر في شعره، غير أن في شعر أثير الدين بن حيان ما يوهم أن يكون ردا على هذا النص" (٣) ومن ذلك قوله:

يقول امرؤ قد خامر الكبر رأسه ... وقد ظن أن النحو سهل مقاصده

ولم يشتغل إلا بنزر مسائل ... من الفقه في أوراقه هو راصده

وقد نال بين الناس جاها ورتبة ... وألهاه عن نيل المعاني ولائده

وما ذاق للآداب طعما ولم يبت ... يعنَّى بمنظوم ونثر يجاوده (٤)

---

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ٥٤٢/٢

(٢) ابن الجياب، ديوانه، تحقيق فوزي عيسى، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١٦، ص٣٩

(٣) الهرامة، عبد الحميد عبد الله: القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري ،٢٨٤/١

(٤) هو محمد بن محمد بن محمد بن قطبة الدّوسي، يكنى أبا بكر، حاله، شاعر مطبوع، مكثر، انقاد له مركب النظم في سنّ المراهقة، واشتهر بالإجادة، وأنشد السلطان، انظر في ترجمته: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ١٦٢/٢، و٥٣/٣

ومن صور الهجاء الأخرى التي نتجت عن هذا الصراع، قول الأعمى التطيلي:

ويا "قام زيد" أعرضي أو تعارضي فقد حال من دون المنى "قال مالك"

سمت بأبي العباس تلك وهـــذه إلى حيث لا تسمو النجوم السوامك

رحيب مجال الفكر، والأمر ضيق صليب قناة الصبر، والأمر هاتك (١)

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الشعراء ينظم قصيدته مضمنا إياها معاني الإنصاف والإذعان والاعتراف بقوة خصمه وقد يكون لذلك أسبابه الأخلاقية والمبادئ المتجذرة فيه؛ وهو ما سنراه بصورة مفصلة في محور الصراع بين شعراء المسلمين وشعراء الممالك النصرانية في الأندلس.

ومن صور الصراع التي انعكست على نفسية الشاعر وتجلت على الأدب عموما فنتج عنها الشعر والتأليف؛ ما وقع بين ابن الخطيب وأبي العباس القباب (٢) فالمعروف تاريخيا أن ابن الخطيب حل بالمغرب في فترات متقطعة وفي ظروف مختلفة سفيرا ولاجئا(٣) واتصل بملوك الدولة المرينية وكبار مثقفيها من شعراء وكتاب وفقهاء واحتك بهم احتكاكا كان أحيانا مبنيا على الصداقة والمودة، وأحيانا أخرى كان سببا في نشوب صراعات وخلافات سجلها الشعر والتاريخ كما سجلها ابن الخطيب نفسه بما تركه من آثار في

(١) الأعمى التطيلي، ديوانه ومجموعة من موشحاته، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩م، ص٩١

(٢) هو أبو العباس أحمد بن القاسم بن عبد الرحمن الجذامي المعروف بالقبَّاب، انظر في ترجمته: ابن القاضي: جذوة القتباس ٦٠/١، وابن فرحون: الديباج المذهب، ص٤٠، وابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١٨٧/١.

(٣) انظر في نزوله بالمغرب سفيرا ولاجئا؛ المصادر الآتية: المقري، نفح الطيب، ٥٣/٣، والناصري السلاوي في الاستقصا، ١٩١/٣، وابن الخطيب بسلا، ص١٧

الصراع النفسي والفكري ويهمنا منها ما حدث بينه وبين أبي العباس القباب عندما استدعاه لزيارته ولكنه لم يستجب لظروف أعاقته عن ذلك، فما كان من ابن الخطيب إلا أن قام وقعد ــ كما يقال ــ ورأي في ذلك سبة له وإهانة لشخصيته الكبيرة وحطا من قيمته العظيمة فاستعد للانتقام وانساق وراء التعصب والانفعال وتصدى له ولأنصاره بالنقد فنال منه ومن جميع الممتهنين مهنته دون ذنب إلا لأنهم من نفس الطبقة التي ينتمي إليها من قام ضده هذا الصراع وهذه الحملة العنيفة التي صبها ابن الخطيب في قالب خاص، وصاغها في كتاب مستقل سماه (مثلى الطريقة في ذم الوثيقة) [1] وبالرغم مما جاء فيها فإن ابن الخطيب نظم فضلا عن ذلك أبياتا تنم عن موقفه من ابن القباب وسخطه عليه والتعريض به وبمساوئه، ومن ذلك قوله:

وغير غريبة أن رق حـــر ... على من حاله مثلي رقيقه

فإما زاجر الورع اقتضاها ... ويأبي ذاك دكان الوثيقه

وغشيان المنازل لاختبار ... يطالب بالجليلة والدقيقة (٢)

وقد نتج عن هذا شعر اعتذار يعالج نفس القضية؛ فبمجرد إدراك ابن القباب ما لهذا الموقف من أثر في نفس ابن الخطيب بادر بالاعتذار قائلا:

رسولك لم يبيِّن لي طريقه ... تقرب من حديقتك الأنيقه

فلا بأوٌ لدي ولا إبـــاء ... ولكن ساء في العرض الطريقه

وهب أني أسأت فكم صديق ... تدلل واغتدى فجفا صديقه (٣)

---

(١) هذا الكتاب عبارة عن رسالة كتبها ابن الخطيب أثناء إقامته بسلا إلى الفقيه القباب بتحقيق عبد الوهاب منصور، نشر دار المنصور للطباعة،١٩٧٣م، في أربعين صفحة بهوامش وتعليقات قليلة. وهناك تحقيق للأستاذ عبد المجيد التركي، صدر عن دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ١٨٧/١

(٣) الناصري، جعفر بن أحمد: ابن الخطيب بسلا، تحقيق محمد حجي، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، ١٩٨٨، ص٨٨

ومع ذلك لم تهدأ ثورة ابن الخطيب ولم يهدأ انفعاله؛ ولعل السبب في ذلك راجع إلى صراع نفسي اختلج نفس ابن الخطيب جراء تركه وطنه ولجوئه إلى المغرب، فأنبأ عما في داخله مسترسلا في لومه بل في هجائه قائلا:

من استغضبت من هذي الخليقه بمغضبة بإنكار خليقـــه
بعثت بمرسل لك معْ عتيقي فلم تطع الرسول ولا عتيقه
وطوقت السفير الذنب لما عجلت به ولم تبلغه ريقه
وقد عارضت عذرك باعتراف فزدت مذمة تسم الطريقه
وهل بعد اعتراف من نزاع وهل بعد افتصال من وثيقه[1]

وبالمقارنة بين هذا الرد ورد القباب نجد الخلاف بين عالمين تصارعا أو تصادما فتعارضا شعرا أنبأ فيه ابن الخطيب عن صراعه النفسي الذي انعكس على بعض من يعيش معه في المجتمع، ولعل ذلك جراء ما حدث له من انتقاله من موطنه الأصلي إلى مكان لجوئه بالمغرب الأقصى رغم ما حظي به ابن الخطيب من امتيازات من قبل السلطان المريني الذي أصدر في حقه ظهائر كثيرة .

ومن ذلك أيضا ما جرى بين ابن رشيق التغلبي[2] ومالك بن المرحل [3] من صراع حينما نظم الأول قصيدة هجائية علقها في عنق كلب ولم يقصر معه في الضرب ليعلو نباحه ويسمعه الناس، إلى أن وصلت لابن المرحل فاطَّلع عليها، وكان مما جاء فيها قول التغلبي:

---

(١) الناصري: ابن الخطيب بسلا، ٩٠-٩١

(٢) هو الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلبي، يكنى أبا علي، مرسي الأصل سبتي الاستيطان، انظر في ترجمته: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤٧٢/١.

(٣) سبقت ترجمته، ص ١٠ من هذه الدراسة.

لكلاب سبتة في النباح مدارك وأشدها دركا لذلك مالك
شيخ تفانى في البطالة عمره وأحال فكيه الكلام الآفك
كلب له في كل عرض عضة وبكل محصنة لسان آفك[١]

وما كان من جواب ابن المرحل بعد هذا الغضب الذي أظهره ابن رشيق التغلبي في شعره إلا أن أجاب بهذين البيتين اللذين يحملان كثيرا من التعريض:

كلاب المزابل آذينني بأبوالهن على باب داري
وقد كنت أوجعها بالعصا ولكن عوت من وراء الجدار [٢]

رأينا فيما سبق أن صور هذا الصراع قد تكون بين أي أديبين أو مفكرين أو غيرهما من المنتمين لأي مجال معرفي فيحدث الصراع وينطلق الانفعال والتعصب من كلا لجانبين وتلك حالات صراعية نفسية تختلف دوافعها من شخص لآخر وتعتري جميع بني البشر، مع الفرق في درجة الانفعال وسرعة الرد، ولكن الأخلاق الحسنة والتمسك بمبادئ الشريعة الإسلامية كان لهما أكبر الأثر في ضبط ما يصدر عن الطرفين المتصارعين وإحلال التسامح والمودة والإخاء محل الكره والعداوة والبغضاء حتى مع غير المسلمين[٣]. والحقيقة أنه من خلال صلتي الحميمة بالأدب الأندلسي وتاريخه وجدت أن هذه النزعة الأخلاقية لم تقتصر على الشعراء فقط بل انسحبت

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤٧٤/١

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ، ٤٧٥/١

(٣) انظر نماذج أخرى لصور الصراع التي يتعامل فيها الشاعر بأخلاقة الحسنة والتزامه بتعاليم الإسلام في: ديوان الأعمى التطيلي، ص٣١ و ٢٠٤، وديوان عبد الكريم القيسي، ص١٩٨، وديوان ابن دراج القسطلي، ص١٢٧، وديوان ابن الجياب، ص٧، وديوان ابن الخطيب، ١١١/١، و ٦٣٠/٢

أيضا على النثر وتخطته إلى مؤرخي الأدب الأندلسي والمغربي كابن بسام الذي قال: " وحسنت كتابي هذا عن شَين الهجاء، وأكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء " [١] وهناك بعض شعراء الغرب الإسلامي ــ أقصد: الأندلس والمغرب ــ من لم يكتب شعرا يهجو به أحدا قط، ونأخذ مثالا على ذلك الشاعر ابن الحاج النميري صاحب "فيض العباب وإفاضة قداح الآداب"[٢] الذي قال :

لي المدح يروى من كنت كأنما تصورت مدحا للورى وثناءَ

وما لي هجاء، فاعجبن لشاعر وكاتب سر لا يقيم هجاءَ[٣]

وإذا نظرنا إلى الصراع في بعده الاجتماعي وجدناه يمثل نضالا حول قيم، أو مطالب، أو أوضاع معينة، أو قوة، أو حول موارد محدودة أو نادرة، ويكون الهدف هنا متمثلا ليس فقط في كسب القيم المرغوبة، بل في تحييد أو إلحاق الضرر، أو إزالة المنافسين والتخلص منهم [٤]، والصراع في مثل هذه المواقف يمكن أن يحدث بين الأفراد، أو بين الجماعات، أو بين الأفراد والجماعات، أو داخل الجماعة أو الجماعات ذاتها، فكل طرف يحاول إقصاء الآخر أو القضاء عليه [٥]، والأدب شديد الصلة بالحياة الاجتماعية والفكرية

(١) الشنتريني، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٦١/١

(٢) رحلة فيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب، حققها الدكتور محمد بن شقرون، ونشرت عن دار الغرب الإسلامي، الرباط، ط١، ١٩٨٤.

(٣) ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٥٩

(٤) ينظر: حنا، فادي بطرس: الأساليب المتنوعة للتعبير عن مفهوم الصراع في التصوير، مجلة التربية النوعية والتكنولوجيا، ع٥/ ٢٠١٩، ص ٤٤٢

(٥) ينظر: السيد، منير محمود: مفهوم الصراع: دراسة في الأصول النظرية للأسباب والأنواع، مجلة دراسات مستقبلية، جامعة أسيوط، ع ،٣يوليو ١٩٩٧م، ٥.

والثقافية، والاطلاع على الحياة العامة ومعرفة مجرياتها يعد الإطار التي يعاد فيه نسج الحياة الأدبية التي نريد معرفتها وتحليل خلفياتها وأبعادها.

والمجتمع الأندلسي في بعض عصوره كان له دور كبير في بروز شكل آخر من أشكال الصراع ألا وهو الصراع مع المجتمع، الذي عاش فيه الشاعر الأندلسي ورأى فيه أحداثا اجتماعية وفكرية سلبية كانت " كلها كرد فعل للاضطرابات والقلق وانهيار القيم والشعور بالمرارة والإحساس بالضياع"(١)، ويعطينا ابن حزم صورة عن الحياة العامة والأوضاع المتردية في الأندلس قائلا: " وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساع في الأرض بفساد، للذي ترون عيانا من شن الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي ينقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام"(٢)

ومن الطبيعي أن تنعكس هذه الأوضاع على الشعراء وغيرهم إضافة إلى أنها تعيق "كل نشاط صناعي وتعرقل كل رخاء تجاري"(٣) ومن البديهي أيضا أن يعطينا الشعر صورة واضحة حية لهذه الظروف التي تسبب صراعا مع المجتمع عند الشعراء، ومنهم الشاعر ابن الجزار السرقسطي الذي

---

(١) هيكل، أحمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٣٤٩

(٢) الأندلسي، أبو محمد علي بن حزم، ١٩٨٧، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٣، ص١٧٣

(٣) هيكل، أحمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص ٣٤٨

ترك مهنة الشعر وعاد إلى مهنة الجزارة فقال مدافعا عنها بعد أن لامه بعض أصحابه فرد قائلا:

تَعيب عَليَّ مَألوف القَصابة وَمَن لَم يَدرِ قَدرَ الشَيء عابَه
وَلَو أَحكَمت مِنها بَعض فَنٍ لَما استبدلت مِنها بالحجابه
لعمرك لَو نَظَرت إِليَّ فيها وَحَولي مِن بَني كَلبٍ عصابه
لَهالك ما رَأَيت وَقُلت هَـذا هَزبرٌ صَير الأَوضام غابه
وَلَو تَدري بِها كَلفى وَوَجدي عَلمت عَلام تَحتملُ الصَبابة
لَقَد شهدت لَنا كلب وهـرٌ بِأَن المَجد قَد حـزنا لبابه
إِذا طلع الوَليد لَنا رَضـيعاً رَأَيت بِوَجهِهِ سيما النَجابه
وَإِن بَلَغَ الفِطامَ فَذاكَ لَيث هَزبرٌ كاسر للحـرب نابه
إِذا ما نَحنُ نازَلنا قَبـيلاً رَأَيت المَوت قَد أَمضى حِرابه[1]

من خلال النص السابق تظهر طبيعة المجتمع التي أجبرت الشاعر على اللجوء إلى مهنة رائجة يتقوت منها، ودلالة هذا التحول الذي لم يكن فقط " معبرًا عن تغير في النشاط المهني للشاعر بقدر ما هو تعبير غارق في الرمزية للتناقضات التي كان يعيشها المجتمع السرقسطي حينذاك بين حدي ثراء السلطة وفقر الشعب" [2]، وقد تحول هذا الأمر عند بعض الشعراء إلى صراع نفسي تجاوز الشاعر فيه الجوانب الحسية، ومن ذلك قول الشاعر ابن دراج القسطلي في انعكاس حال أبنائه على نفسه:

---

(١) الجزار السرقسطي، أبو بكر يحيى بن محمد، ديوانه، تقديم وتحقيق العربي سالم الشريف، دار شموع الثقافة، ليبيا ط١، ٢٠٠٣، ص١١٨-١١٩

(٢) المالكي، سعيد بن مسفر: ملامح الصراع في شعر ابن الجزار السرقسطي، ص٣٤٨، وانظر نماذج أخرى للشاعر نفسه في ديوانه، ص١٢٧

قد أقفروا وطنَ الأنيس وأنِّسَت بهم مفـــــــاوز وقفار
يتأوهون إذا رمـــت أوهامـــهم دارا لساكنها بها استقرار
ويهيجهم عِينٌ لهـــن مرابض ويشوقهم طير لها أوكار
وإليك يا منصور حطوا أرحلا لعبت بهن تنائف وبحار(١)

وقد كان ابن ادراج القسطلي من شـــعراء الأنـــدلس المبـــرزين الـــذين انعكست حياتهم الأسرية على نفسيته فأحدثت صراعا نفسيا انعكس على شعره مصورا به حال زوجته وبناته وأولاده ومشاهد وداعهم وتشردهم فـــي أثنـــاء غربته وغير ذلك في صور شعرية تعبر بصدق عما يمـــوج بالشـــاعر مـــن صراع داخلي.

(١) ابن دراج القسطلي: ديوانه، ص ١٥٧

المحور الثاني: الصراع بين المسلمين والنصارى الإسبان:

كان الدفاع عن الإسلام ومناهضة أعدائه في الأندلس لا ينقطع؛ لصراعهم الدائم مع النصارى(١) ، وإذا نظرنا إلى هذا الصراع في صورته السياسية وجدناه " يشير إلى موقف تنافسي خاص، يكون طرفاه أو أطرافه، على دراية بعدم التوافق في المواقف المستقبلية المحتملة، والتي يكون كل منهما مضطرا فيها إلى تبني أو اتخاذ موقف لا يتوافق مع المصالح المحتملة للطرف الثاني أو الأطراف الأخرى "(٢)

وقبل الدخول في صورة الصراع بين المسلمين والنصارى وتجلياته على الشعر الأندلسي نشير إلى أن صورة هذا الصراع لم يعكسها الشعر فقط بل تناولها النثر أيضا ــ كما ذكرنا سابقا ــ متمثلا في فن الرسائل التي تطرقت إلى الكثير من الموضوعات، منها ما كان يدور في المغرب بأقطاره الثلاثة، ومنها ما هو مشترك بين أقطار الغرب الإسلامي للمناقشة حول الصراع الدائر بين المسلمين والنصارى والوضع اليائس الذى آل إليه أمر الأندلس من انهزام وضعف. (٣)، وهذا ما جعل عبد الرحمن بن خلدون يعد سنوات منتصف القرن السابع الهجري" فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين واستبيح حماهم، والتهم العدو بلادهم وأموالهم " (٤) وهكذا سقطت في هذه الفترة على التوالي: قرطبة، وبلنسية، ودانية، وجيان، وشاطبة، وإشبيلية، ومرسية وغيرها من المدن الأندلسية، وقد أدى هذا الوضع إلى تفاقم خطر

---

(١) راجع في ذلك: عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧م

(٢) حنا، فادي بطرس: الأساليب المتنوعة للتعبير عن مفهوم الصراع في فن التصوير، ص٤٤٢

(٣) انظر: أبو جبل، إبرهيم: النثر الفني في دولة بني مرين، ص٢٠٥

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون، ٣٩٢/٧

الممالك النصرانية وتدخلهم في شؤون المسلمين، فراح الأندلسيون يستنجدون نثرا ــ من خلال فن الرسائل التي تبعث على لسان ملوكهم ــ بملوك المغرب الذين حملوا على عاتقهم راية الدفاع عن الإسلام والمسلمين في الأندلس، أو شعرا على لسان الشعراء مدفوعين بحبهم للوطن دون إيعاز من أحد.

كما واكب الشعر كل هذه الأحداث مخلدا شعور الأمة المسلمة في حزن وألم وبكاء ومسجلا هذا الصراع الدائر في الأندلس مع الدعوة إلى الدفاع عن تراب الوطن ومقاومة النصارى الإسبان.

ومن هذه النصوص التي تدل بوضوح على طبيعة هذ الصراع الذي انعكس على الأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة، وتعد من أصدق ما قيل في الشعر العربي، قول مالك بن المرحل الذي نظم قصيدة من تسعة وأربعين بيتا استصرخ فيها جماهير المسلمين في العدوة المغربية، وعمل على تأجيج مشاعرهم، وإثارة حفائظهم، وقد قرئت هذه القصيدة، كما ذكر علي بن أبي زرع الفاسي "بصحن جامع القرويين من فاس يوم الجمعة بعد الصلاة، فبكى الناس عند سماعها، وانتدب كثير منهم للجهاد"(١)

افتتح ابن المرحل نصه مخاطبا الوازع أو الضمير الديني عند مسلمي المغرب الأقصى والأدنى والأوسط(٢)، قائلا:

استنصر الدينُ بكمْ فاقدمُوا فإنّه إن تُسلموه يُسْلَمُ

---

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، طبع دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص٩٨

(٢) حكم المغرب في هذه الفترة ملوك الدولة المرينية الذين شغلهم أمر الإسلام والمسلمين في العدوة الأندلسية.

لا تُسلموا الإسلامَ يا إخواننا وأسرجوا لنصرِه وألجموا
لاذتْ بكم أندلسٌ ناشدةً برحم الدين ونعمَ الرحمُ
واسترحمتكمْ فارحموها إنه لا يرحمُ الرحمنُ من لا يَرحَم(١)

وفيها يركز الشاعر على أواصر الأخوة بين المغاربة والأندلسيين:

ما هي إلا قطعةٌ من أرضكم وأهلُها منكم وأنتم منهم
لكنها حُدّت بكلِ كافرٍ فالبحرُ من حدودِها والعجمُ
لهفاً على أندلُسٍ من جَنَّةٍ دارتْ بها منَ العدا جهنمُ
استخلصَ الكفارُ منها مُدناً لكلِّ ذي دين عليها ندمُ
قرطبةُ هي التي تبكي لها مكةُ حزناً والصفا وزمزم
وحمّص وهي أُخت بغداد وما أيامُها إلا الصبا والحلم

وقد نمت روح الصراع والتصدي للأعداء من الممالك النصرانية من خلال ما كان يراه الأندلسيون من مجازر وصور وحشية للمسلمين الذين آثروا البقاء في الأندلس وعدم ترك أوطانهم بعد سقوط غرناطة آخر معقل من معاقل المسلمين. وفي القصيدة نفسها ينتقل الشاعر مسترسلا في عرضه لقضية الأندلس، وما تنتظره من عون ملوك العدوة المغربية، فصور في الأبيات التالية صراعها مع الممالك النصرانية ومبرزا ما أحدثوه من قتل وأسر وجوع وفتنة لحقت البلاد والعباد، يقول:

استخلصوها موضعاً فموضعاً واقتدروا واحتكموا وانتقموا
وقتّلوا ومثّلوا وأسّروا وأثكلوا وأيتموا وأيّموا
أيام كانَ الخوفُ من أعوانهم والجوعُ والفتنةُ وهي أعظمُ

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٩٨-٩٩، وانظر أيضا: جبران، محمد مسعود: مالك بن المرحل أديب العدوتين، ص١٧٠

وإذا كان الشاعر ابن المرحل قد خيم على وجدانه هذا الجو المحزن من مأساة الأندلس والأندلسيين، فإنه قد التفت في لهفة إلى ملوك العدوة المغربية ذوي البأس والقوة؛ ليستنهض هممهم ويوقظ حميتهم ويستدعيها لمقاومة جيوش الممالك النصرانية، يقول:

ما صدقوا أن وراءَ البحر مَنْ ... يَغْضبُ للإسلام حينَ يظلم
ولا دروا أن لديكم حرمةً ... يحفظُها شبابُكم والهرمُ
لو عَرفوا قبائل العدوة ما ... عَدَوا على جيرانهم واحترموا
اليومَ يدري كلُّ شيطانٍ بها ... أن قد رمتهم بالشعاع الأنجمُ
تقدّمتْ نجومُهم طليعةً ... من نحوكم أخطاهم التقدمُ
فانتصفوا للدينِ من أعدائه ... واقترعُوا عليهم واقتسموا
وامتلأتْ أيديهم من السبا ... وأحسبتهم يَعَمٌ ونعَمُ

ثم واصل الشاعر ثناءه على المغاربة الذين حملوا على عاتقهم رايةَ الدفاع عن الإسلام والمسلمين في الأندلس، وبين لهم فضل انتصار المسلمين على خصومهم، فقال:

يا أهل هذيْ الأرض ما أخركم ... عنْهم وأنتمْ في الأمور أحزمُ
تسابق الناسُ إلى مواطنٍ ... الأجرُ فيها وافرُ والمغنمُ
فغزوا الكفارَ في ديارهمْ ... وعَزَمُوا أن يهزموا فهزموا
فمِنْ سيوفٍ في رؤوسٍ تنحني ... ومن رماحٍ في ذرى تحطّمُ
وقامت الحرب على ساق فما ... زلت لأهل الصدق منهم قدم
باعوا من الله الكريم أنفسا ... كريمة ففاض منها الحكم
دعاهم الله إلى رحمته ... فاجتمعوا ببابه وازدحموا

القصيدة كلها تصوير ونقل للصراع الدائر في الأندلس، واستنفار لملوك العدوة المغربية ممزوجا بالحزن والألم واللوعة والتحسر على ما ضاع من أيدي المسلمين. ويختم الشاعر قصيدته مبتهلا إلى الله قائلا:

يا ربِّ وفقنا وألهمنا لما فيهِ لنا الخيرُ فأنتَ المُلهمُ

يا ربِّ أصلحْ حالَنا وبالنا أنتَ بما فيه الصلاحُ أعلمُ

يا ربِّ وانصرنا على أعدائنا يا ربِّ واعصمنا فأنت تعصم

وإذا كان بعض الشعراء في الغرب الإسلامي قد استنفروا بقصائدهم واستصراخاتهم الحكام فقط، فصاحبنا في النص السابق قد استصرخ حمية الجميع، كما أنه استثار وجدانهم نحو نكبة الأندلس، وفي ذلك يقول الدكتور محمد بن تاويت:" فهذه أول قصيدة نراها تتوجه إلى مخاطبة الشعب واستنفاره على أعداء الإسلام، وهي أسلوبها نراها تنزل عن مستوى الأسلوب الذي عرف لمالك بن المرحل لأنها قصيدة نظمت للشعب، فهو كلام موجه إلى العامة وأشباه العامة من المجاهدين الذين يحملون السلاح ولا يحملون الأقلام"(١)

وبصرف النظر عن أسلوب القصيدة فإنها قد بلغت الغاية في التأثير على جموع المسلمين الذين اعتزوا بهذه الصرخة واستجابوا لنداء إخوانهم المسلمين في صراعهم مع الممالك النصرانية ، وقد مر بنا كلام ابن أبي زرع الذي ذكر فيه بكاء الناس عند سماعها في جامع القرويين.

لقد كان الصراع بين المسلمين والنصارى في الأندلس صراعا مواكبا للحروب الصليبية في المشرق، فبتوالي السقوط للمدن الأندلسية أصبح

(١) ابن تاويت، محمد: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ، نشر دار الثقافة المغربية، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٣، ٣٤٣/١

المسلمون يعانون معاناة شديدة من الضغوط الواقعة عليهم من الممالك النصرانية، ومن هذه المدن التي سقطت الواحدة تلو الأخرى مدينة سرقسطة ثم بلنسية[١] وهنا زادت حدة النكبة على الأندلسيين واشتعلت نيران الصراع التي دفعت الشعراء إلى صب قصائد الهجاء وبغض النصارى شعرا ونثرا وأصبح الصراع دينيا محضا عند النصارى الإسبان وليس صراعا من أجل الاسترداد، فمشروعية الاسترداد" كانت في حقيقتها تعني استرداد الأندلس من ظل الإسلام إلى ظل النصرانية، ولذلك شُكِّلت الجماعات الدينية المحاربة، وحظيت الحملات بمباركة البابا، أما مشروعية المسلمين في صراعهم فكانت إيمانا بأن الأرض لله، ويجب أن ترفع فيها كلمته دون إلحاق الضرر بمن لا يقف في طريق الدعوة، ويجب إعطاؤه الأمان في ماله وعرضه ومعتقده "[٢] وهذا على عكس من قال بأنها حرب استرداد كما ذكر صاحب دراسة صورة المدينة الإسلامية المحتلة في الشعر الأندلسي [٣] ويؤيد ما ذهبنا إليه؛ ما جاء في دراسة التعصب الديني في القرنين الرابع والخامس في الأندلس، حيث قال عن استنصار الإسبان بإخوانهم في الدين في أنحاء مختلفة من العالم: " كانت حربهم مع المسلمين حربا نصرانية ضد الإسلام، فوقفت البابوية مع الإسبان بكل قوتها ماديا ومعنويا، وشنوا حربا شعواء ضد الوجود الإسلامي في

(١) راجع في ذلك كتاب "دولة الإسلام في الأندلس" لمحمد عبد الله عنان، فهو من الموسوعات التي أرخت للصراع بين المسلمين والنصارى في الأندلس. وانظر أيضا، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق٢/٢٣

(٢) انظر: عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين: ٧٨، ١٤٤، والهرامة، عبد الحميد عبد الله: القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري، ١/٣٧٩-٣٨٠

(٣) حمدان، عبد الرحيم : صورة المدينة الإسلامية المحتلة في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين، مجلة جامعة النجاح، ج٢٣، ٢٠٠٩م، ص٥٨٨

الأندلس، وظهر الحقد المتأصل في نفوسهم من خلال معاملة المسلمين بعد احتلال مدنهم، وهدم مساجدهم، وحرمانهم من أداء الشعائر الإسلامية" [١] وقد كانت كل المعارك التي يخوضها النصارى تُبارك من قبل البابا في روما، " وكانت الكنيسة ما تنفك تلهب الحماس العقدي لدى النصارى وتدفعهم باسم الحروب الصليبية المقدسة، ولتحقيق انتصار هؤلاء النصارى عمدت الكنيسة إلى إذكاء الحروب الصليبية في الشرق العربي حتى تحول دون تدخل أي دولة لصالح الأندلسيين"[٢] كما كان للقساوسة أيضا دور كبير في إشعال نار الصراع والحقد على مسلمي الأندلس لاضطهادهم والقضاء عليهم، وتحرك في مقابل ذلك علماء المسلمين وفقهاؤهم داعين لمواجهة هذه الحملات الصليبية من أجل نصرة الدين الإسلامي، واستعان كل فريق بأنصاره وأعوانه ضد الآخر؛ لمحوه من الوجود الأندلسي فكما "كان للنصارى مددهم الذي يعتمدون عليه من بلدان أوروبا، فإن المسلمين في الشمال الإفريقي لم يتأخروا عن مد إخوانهم في الأندلس بما يدعمهم في صراعهم الطويل"[٣]

وقد أسهبنا في هذه المسألة هنا للوقوف على طبيعة الصراع ومعرفة الدلالات التي ستفرزها النصوص بعد ذلك، وقد عكست الأشعار الأندلسية طبيعة هذا الصراع ودوافعه [٤] ؛ ممثلا في قصائد مديح أو في قصائد هجاء

---

(١) شيخ إبراهيم، عمر راجح: التعصب الديني في القرنين الرابع والخامس الهجريين في الأندلس، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، ج٢٤، ع١، ٢٠١٦، ص٢٠

(٢) بهجت، منجد مصطفى، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١، ص ١٣٦، وانظر أيضا: نهاية الأندلس، ص ١٤٤

(٣) الهرامة، عبد الحميد عبد الله: القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري، ٣٧٩/١

(٤) انظر أمثلة على ذلك لابن المرحل في درة الحجال لابن القاضي، ٢١/٣، وديوان ابن الجياب، ص٢٠٦

أو في قصائد استجاد واستصراخ، ومن ذلك قول الوقشي في قصيدة يمدح بها عبد المؤمن الأمير الموحدي الذي دخل بمائة ألف فارس من الموحدين أغارت على طليطلة التي لم تقم بعدها للإسلام في الأندلس قائمة تحمد، يقول في مطلعها:

أبت غير ماء النخيل ورودا وهامت به عذب الحمام ورودا

ومنها قوله:

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى فأبصر شمل المشركين طريدا
وهل بعد يقضي في النصارى بنصره تغادرهم للمرهفات حصيدا
ويغزو أبو يعقوب في "شنت ياقب" يعيد عميد الكافرين عميدا
ويلقي على إفرنجهم عبء كلكل فيتركهم فوق الصعيد هجودا
يغادرهم جرحى وقتلى مبرحًا ركوعًا على وجه الفلا وسجودا
ويفتك من أيدي الطغاة نواعمًا تبدلن من نظم الحجول قيودا
وأقبلن في خشن المسوح وطالما سحبن من الوشي الرقيق برودا
وغبرن منهن التراب ترائبًا وخدد منهن الهجير خدودا[1]

اشتملت القصيدة على بعض المعاني التي تدل على أن طبيعة الصراع كانت دينية محضة وذلك بوجود النقيضين، إذ تحالف أنصار الصليب من خارج إسبانيا وداخلها من جهة وتحالف المسلمون في المغرب والأندلس من جهة أخرى [2] لأن المسلمين كان يأتيهم العون من إخوانهم في العدوة المغربية بما يدعمهم في حربهم مع النصارى الإسبان.

(١) المقري: نفح الطيب، ٦/٢٢٠

(٢) انظر في ذلك نصوصا أخرى لابن الجياب في ديوانه، ص ١٩٢

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه القصائد ــ التي صدرت عن شعراء المسلمين في صراعهم مع النصارى ـــ طبعت بالطابع الإسلامي، واتسمت بسمة التدين حتى في أوقات الهزيمة، وللاستشهاد على ذلك نأخذ قول أبي عبد الله الجزيري في بكاء أهل الجزيرة الخضراء:

لتبك لقتلاها العيون السواجم فقد عظم الخطب الخطوب العظائم

إلى الله أشكو. لا إلى غيره. الذي دهينا به ، والله حنان راحم

ألمت بأبناء الجـــــزيرة أمة مجوسية الأنساب مغر أشائم

فصدعت الشمل الجميع بفرقة إلى يوم بعث الحشر لا يتلاءم (١)

والقصيدة كلها متسمة بسمة التدين ويغلب عليها المعاني الإسلامية في مضمونها العام، ومن ذلك أيضا قول ابن دراج القسطلي في مدح المنصور بن أبي عامر الذي عاد منتصرا في معظم غزواته، يقول في إعداده لجيوش المسلمين لنصرتهم على أعدائهم:

لَكَ اللهُ بِالنَّصْرِ العزيزِ كَفيلُ أَجَدَّ مُقامٌ أَم أَجدَّ رَحيلُ

هوَ الفتحُ أَمَّا يَومُهُ فَمُعَجَّلٌ إليكَ وَأَمَّا صُنعُهُ فَجزِيلُ

وآياتُ نصرٍ مَا تزالُ وَلَمْ تزَلْ بهنَّ عماياتُ الضَّلالِ تَزولُ

سيوفٌ تنيرُ الحقَّ أنَّى انْتَضَيْتَها وخيلٌ يجولُ النصرُ حَيْثُ تَجولُ

أَلا فِي سبيلِ اللهِ غزوُكَ من غَوى وَضلَّ بِهِ فِي النَّاكثينَ سَبِيلُ

لئِنْ صَدِئَتْ أَلبابُ قومٍ بمكرِهِمْ فسيفُ الهدى فِي راحَتَيْكَ صَقيلُ

فَإِنْ يَحْيَ فيهم بَغْيُ جالُوتَ جَدِّهِمْ فَأَحجارُ داودٍ لَدَيْكَ مُثُولُ

هُدىً وَتُقىً يُودِي الظلامُ لَدَيْهِما وحقٌّ بدفعِ المُبْطِلينَ كَفيلُ

(١) ابن حيان الأندلسي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود على مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣ ص٣١٣

بجمعٍ لَهُ من قائدِ النصرِ عاجِلٌ إِلَيْهِ ومن حَقِّ اليقينِ دَليلُ
تحمَّلَ منه البحرُ بحراً من القَنَا يروعُ بِهَا أَمواجَهُ وَيَهُولُ(١)

ومنه قول ابن دراج في مدح المنصور منذر بن يحيى مسجلا انتصاراته:

بشراك أيتها الدنيا وبشرانا أحياك بالعدل من بالأمن أحيانا
لعل آمالنا في الله قد صدقت وصدق موعده بالفتح قد آنا(٢)

ولا يخفى ما في هذه القصيدة أيضا من المعاني الإسلامية إذ يشبه الشاعر تطلعه وتمنيه بالفتح بما بشر به النبي صلى الله عليه وسلم بفتح مكة، ولا غرو في ذلك فهم أحفاد من خاض غزوة بدر وأحد، وغيرهما من الغزوات.

ولابن دراج قصيدة أخرى أضفى على معانيها سمة التدين، فالنصر فيها يشفي غليل صدور المسلمين في صراعهم مع النصارى، وجيش المنصور بن أبي عامر جيش يهتدي بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، ونصره موروث من نصر أعمامه الذين نصرهم الله في بدر وأحد، يقول:

سعي شَفى بالمنى قبل انتها أَمدِه ويوم سعد أرانا الفتح غده
بمقدم والقنا ملء الفضاء به وقادم وعتاد الشرك ملء يده
داع إلى دعوة الإسلام ينصرها فأيُّ معتَمَدٍ من شأو مُعتَمِده
وكم فؤاد وكم جسم وكم بصر لباه من قربه سعيا ومن بُعُده
جمعا غدا الحاجب الميمون قائده والنصر والصبر والإيمان من مَدَدِه

(١) ابن دراج القسطلي، ديوانه، تحقيق محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط١، ١٩٦١، ص٣

(٢) المصدر نفسه، ٤٠.

والنصر من سعي أعمام له فطروا لنصر ذي العرش في بدر وفي أحده
مُشدِّدًا عُقَدَ الإسلامِ إن نُكِثَتْ ولا تَحُلُّ خطوبُ الدهرِ من عُقَدِهْ(١)

فابن دراج القسطلي وغيره من الشعراء في القصائد السابقة تناولوا الصراع بين المسلمين والنصارى في الأندلس وكانت الخيوط الجامعة بينها هي سمة التدين التي طبعت هذه النصوص مع بعض الفوارق الفنية بين الشعراء المتناولين لطبيعة هذا الصراع.

وكما طبعت بعض القصائد التي تناولت الصراع بين المسلمين والنصارى بطابع الالتزام والتقيد بتعاليم الإسلام كان في المقابل قصائد أخرى تناولت هذا الصراع في صورة الطعن في مسيحيتهم، ومن ذلك قول مالك بن المرحل الذي اتهمهم في قصيدة له بالانحراف عن التعاليم الحقيقية للدين المسيحي فبأفعالهم التي تصدر عنهم يشوه الدين المسيحي الذي ينتسبون إليه، يقول:

يا أهل هذي الأرض ما أخركم عنهم وأنتم في الأمور أحزم
ما همة إلا قتـــــال أمة يكبر عيسى قولهم ومريم
تشرك بالله وتدعـــو معه خلقا يصح حبسه ويسقم
وتدعي أن له صاحـــبة وابنا، ولا صاحبة ولا ابنم(٢)

اتسمت القصيدة على طولها بسمة الالتزام بالمبادئ الإسلامية مع الطعن في عقيدة أهل الشرك كالتثليث وعبادة الصليب وجعل المسيح عيسى بن مريم إلها ، كما أنها عبرت عن معاناة الأندلسيين الذين آلمهم تساقط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، ومأساة الإسلام الذي زال من هذه البقاع، ومأساة

(١) المصدر السابق، ١٤٥ ــ ١٤٦
(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية ، ١٠٩

الحضارة والفكر والإنسان، مع الدعوة إلى رفع راية التوحيد فوق البلاد التي سلبت والمساجد التي هدمت، ولأجل ذلك فقد كان الفخر كله والمدح الخالص للأمير الذي يحقق النصر للمسلمين على خصومهم النصارى.

وهذه النصوص التي تعبر عن طبيعة الصراع؛ تبرز فيها شخصية المسلم الذي يسلِّم كل أمره لقضاء الله وقدره، فإذا هزم المسلمون في إحدى المعارك؛ نراهم يردُّون ذلك إلى حكمة الله ملتمسين في ذلك الراحة والطمأنينة التي تعينهم في صراعهم على عدوهم كقول أبي عبد الله العقيلي:

حكم من الله حتمٌ لا مردَّ له وهل لحكمٍ منه مُنْحتمُ(١)

وهنا نشير إلى" فن المنفرجات "(٢) التي تنبئ عن التفاعل المستمر للشاعر الأندلسي مع أحداث مجتمعة والقضايا التي تمس دينه، إضافة إلى خطابها المحمل بالمعاني الإيمانية والتسليم بقضاء الله تعالى وقدره، والحض على فضائل الأعمال والتحلي بالصبر في كل الأزمات. ومن منفرجات الأندلسيين التي عبرت عن هذه المعاني وأظهرت تفاعل الشاعر الأندلسي مع

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي، انظر ترجمته وأشعاره في: المقري، نفح الطيب، ٥٢٩/٤

(٢) المنفرجة قصيدة من بحر المتدارك أو الخبب وروي الجيم، وقد اقترن مصطلح المنفرجة بجيمية أبي الفضل يوسف المعروف بابن النحوي، أحد أعلام القرن الخامس الهجري، وفي مطلعها يقول: اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

وهي مصدرة بالحديث الشريف (اشتدي أزمة تنفرجي) وقد حظيت هذه القصيدة بالشرح والتخميس والحفظ والمعرضة من شعراء المغرب والأندلس عقب موقعة طريف وما تلاها من أزمات حلت بالأندل، وذلك لما تحمله هذه القصيدة ومعارضتها من آمال بانفراج الشدة بعد إحكامها. انظر في ذلك: الهرامة، عبد الحميد: ٢٩٣/١-٢٩٤، و الزيات، عبد الله حسين: المنفرجة وبعض تداعياتها بالمغرب والأندلس، مجلة دراسات أندلسية، ع٢٩، ٢٠٠٣، ص٥

ما حل بالمسلمين جراء صراعهم مع النصارى الإسبان؛ قول أبي عبد الله المستحيي [١]:

اشتدي أزمةُ تنفرجي فالشدةُ تؤذن بالفرج
والعسر إذا أعيا ودهى فعليه قدوم اليسر رُجي
والخطب إذا أردى وعدا فبإثره وفد البسر يجِي
وإذا ما شئت تنال منى فاجنح للخير ولا تَعُج
وإذا تبغِي ترقى صعدا في الخلد إلى أرقى الدَّرج
فابذل في تقوى الله غنى وعلى سبل الخيرات عُجِ[٢]

وهناك الكثير من أدباء المغرب والأندلس ممن لهم منفرجات تناولوا فيها قضية الصراع الإسلامي النصراني معارضين بها جيمية رائد هذا الفن ابن النحوي، منهم: أبو القاسم التجاني الذي عارضها بقصيدة مطلعها:

لا بد لضيق من فرج بخواطر علمك لا تَهِجِ[٣]

ومنهم أيضا، أبو القاسم بن رضوان صاحب كتاب الشهب اللامعة الذي يقول:

اشتدي أزمة تنفرجي ما بعد العسر سوى الفرج[٤]

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن علي المستحيي، انظر في ترجمته: ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص٢١٠

(٢) الهرامة، عبد الحميد: ظاهرة المنفرجات الأندلسية في القرن الثامن، دراسات أندلسية، ع ١٥، يناير ١٩٦٦، ص ٦٤، ٦٥

(٣) السخاوي: المقاصد الحسنة، ص ٥٩

(٤) ابن رضوان، أبو عبد الله محمد: الشواهد الواضحة النهج على القصيدة المبشرة بالفرج، تحقيق عبد الله محمد الزيات، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨، ص ٦٨. والهرامة، عبد الحميد: ظاهرة المنفرجات الأندلسية في القرن الثامن، دراسات أندلسية، ع ١٥، يناير ١٩٦٦، ص ٦١

وهذه المنفرجات وغيرها كان السبب في نظمها عند الأندلسيين هو تلك الكارثة التي حلت بمسلمي الأندلس؛ لذلك فهي تعد من صور انعكاس الصراع بين المسلمين والنصارى على الأدب شعرا ونثرا [١] ، حيث ذكر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف ابن رضوان حفيد أبي القاسم بن رضوان في كتابه الشواهد الواضحة النهج أن جده كان ضمن شعراء غرناطة الكثر الذين نظموا منفرجات بمناسبة هزيمة المسلمين في صراعهم مع النصارى في معركة طريف[٢]، قال: " كان نظمه رحمه الله لهذه القصيدة في مقره ببرِّ الأندلس حيث وقعت بين المسلمين والنصارى وقائع عظمت بها الخطب واشتدت الكرب، وكان ذلك إثر كائنة طريف" [٣]

وبذلك عكس الصراع بين المسلمين والممالك النصرانية في صورة منفرجات تدعو إلى استشعار الصراع والتعامل معه بحسن الصبر والإيمان بقضاء الله وقدره. هكذا تعامل الأندلسيون في صراعهم مع الممالك النصرانية بصورة يحدوهم فيها الثقة بالله والتفاؤل بنصره مسترجعين في ذلك التاريخ الإسلامي من نصر الله تعالى للمسلمين على المشركين في غزوة بدر، ومن ذلك ما رأيناه من المعتمد بن عباد في تناوله لهذا الصراع عندما جعل ابنه على مقدمة الجيش وسار وهو يتفاءل لنفسه قائلا:

غَزْوٌ عَلَيكَ مُبارَكٌ في طَيِّهِ الفَتحُ القَريبْ

---

(١) من النصوص النثرية، رسالة ابن الخطيب التي أسماها " استنزال اللطف الموجودة في أسر الوجود " تناول فيها الصبر على المصائب ،اثره في رضا الله عز وجل.

(٢) للاطلاع على أحداث المعركة، انظر الناصري السلاوي: الاستقصا، ١٣٦/٣. وانظر في الحديث عن هذه المنفرجة، الزيات، عبد الله حسين: المنفرجة وبعض تداعياتها بالمغرب والأندلس، دراسات أندلسية، ع ٢٩، ٢٠٠٣، ص ١٥

(٣) ابن رضوان: الشواهد الواضحة النهج، ص ٦٥

لِلَّهِ سَـــيفُكَ إِنَّهُ سُخطٌ عَلى دينِ الصَليبْ
لا بُدَّ مِن يَومٍ يَكو نُ لَهُ أَخٌ يَومَ القَليبْ (١)

ومما ينبغي الوقوف عليه هو أن بعض الشعراء الأندلسيين ــ في خضم هذه الصراعات ــ كانت تظهر عندهم ثنائية واضحة، نذكر منهم الشاعر عبد الكريم القيسي (٢) الذي ظهرت عنده ثنائيتان تمثلت الأولى في حبه للوطن والثانية في حبه لفتاة نصرانية، ومن خلال شعره يظهر أنه فضل حبه للوطن، يقول من قصيدة له:

إن خانني جلدي في الصبر عن بلدي وكنت من كمد فوق الذي أصف
فالعذر يقبله في ذاك كل فتـــــى لأنه واضح للعين منكشف(٣)

ولا بد أن نلفت النظر هنا أيضا إلى أنه بنهاية الصراع بين المسلمين والنصارى وسقوط دولة الإسلام في الأندلس ظهرت الروح الانهزامية التي انعكست على بعض الشعراء الأندلسيين، والانهزاميون" جماعة آثرت أسلوب الخضوع والخنوع واليأس على أسلوب المقاومة والنضال، وفضلت العيش في جحيم الهزيمة، ولم تستطع تجاوز وقائعها وأحداثها، أو أن تسمو فوق جروحها وآلامها"(٤) ونكتفي هنا بذكر نصين يمثلان هذه الروح الانهزامية

(١) ابن عباد، المعتمد: ديوانه، تحقيق حامد عبد المجيد وأحمد بدوي، وراجعه طه حسين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠، ص ٥٣

(٢) هو عبد الكريم بن محمد القيسي، لم تعرف كنيته فقد أشار محققا الديوان أن هناك بياضا قبل اسم الشاعر في مخطوط الديوان، ولد على الأرجح في العقد الأول من القرن التاسع الهجري في مسقط رأسه بسطة. انظر ديوانه بتحقيق جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة، بيت الحكمة، تونس، ١٩٨٨، ص ٨

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٠

(٤) أعراب، الطرايسي أحمد : الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي، المجلس الوطني للثقافة والفنون، المغرب،١٩٨١، ج١٢، ع١، ص١٥٦

عند طائفة من الشعراء، النص الأول: للشاعر ابن العسال الذي عبر عن هذه الروح الانهزامية بقوله:

يا أهل أندلس حثــوا مطيكم فما المقـــام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط(١)

فالشاعر في الأبيات السابقة يحض أهل الأندلس علـــى مغادرتهـــا لأن المكوث بها بعد سقوط مدينة طليطلة من الغلط إذ نراه يتعجـــب مـــن كيفيـــة العيش مع هؤلاء النصارى الذين لا يرقبون في أي أندلسي مسلم إلا ولا ذمة، يقول:

ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيَّات في سفط(٢)

والنص الثاني لابن خفاجة الذي كان يُنتظر منه الكثير من القصائد لنقل هذا الصراع، يقول في بلنسية بعدما أحرقت فتغيرت ملامحها وأصبحت غير المدينة التي كان يألفها من قبل، يقول:

عاثت بساحتك العـــدا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد في جنابك ناظـــر طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلهـــا وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عراصتها لا أنت أنت ولا الديار ديار(٣)

وصف الشاعر مدينته التي كان يعيش فيها ويتقلب في ربوعهـــا بـــين أشجار ورياض وبساتين، وقد ترك سقوط مدينته في نفسه أثرا محزنا عبرت عنه الأفعال التي تدل على الخراب والدمار، وابن خفاجة من الشعراء الـــذين

---

(١) المقري، نفح الطيب، ٦٤/٦. وأزهار الرياض، ٤٦/٢

(٢) المصدر السابق، المكان نفسه.

(٣) ابن خفاجة: ديوانه، تحقيق السيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٧٩، ص٣٥٤

شهد لهم الأدب الأندلسي، ولذلك فنحن يأخذنا العجب مع صاحب دراسة الأصوات النضالية من قلة أشعار ابن خفاجة " الذي يرى تساقط المدن في يد العدو، وخراب معالم الحضارة الأندلسية، فلا يتحرك لسانه بشيء من الشعر إلا ببعض أبيات يبث فيها عواطفه تجاه مدينة بلنسية"(١)

وقد كانت صورة الصراع وانعكاسها على الشعر واحدة ــ بمدلولاتها ومعانيها ــ في المشرق أو في الغرب الإسلامي، وللتدليل على ذلك نقف عند ملحوظة مهمة أثارت انتباهنا عند جمع مادة الصراع التي انعكست على الشعر وهي أن صيحات الشعراء المسلمين ــ في تناولهم للصراع بين المسلمين والنصارى ــ لم تقف عند إخوانهم في قطرهم، بل تعدتهم إلى الملوك المسلمين في كل مكان، حيث راحوا يوجهون نداءات الاستغاثة إليهم دفعا لهجمات عدو عنيد، وردا لحق سلب أو ثغر استبيح، وقد كثرت هذه الصيحات في ثنايا قصائد المديح، وفي معرض الحديث عن شمائل الممدوح وشجاعته وما أعده لملاقاة أعداء الإسلام من عدة وعتاد، وسنستشهد هنا بنص لشاعر مشرقي ورد في رحلة ابن رشيد السبتي (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة)؛ للتدليل على أن صورة الصراع وانعكاسها على الشعر واحدة في المشرق أو في الغرب الإسلامي، يقول أبو اليمن بن عساكر(٢) داعيا المسلمين لهبة تعيد للإسلام والمسلمين

(١) أعراب، الطرايسي أحمد : الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي، ص ١٥٨

(٢) هو عبد الصمد بت عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن الحسن، المكنى بأبي اليمن، والملقب بأمين الدين، والمعروف بابن عساكر، الدمشقي مولدا، المكي إقامة، جمع شعره وشرحه وقدم له الدكتور عبد الرازق حويزي، وتم نشره في دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع،٢٠١٩، ع٣-٤، ج ٥٥. والنص الذي استشهدنا به لم يرد فيما جمعه الدكتور عبد الرازق وإنما ورد في رحلة ابن رشيد التي حققها الدكتور أحمد حدادي. انظر في ترجمته: ملء العيبة، ١٤٥/٥، وتاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ١٣٦/١، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ٢٦١/٣، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ٤٣٣/٥.

قوتهم، ومسلطا الضوء على ما أحدثه الصليبيون في المشرق أو النصارى الإسبان في الأندلس من فساد ودمار، وحاضا للمسلمين على قتال أعداء الإسلام ومحرضا للمتقاعدين والمتثاقلين إلى الأرض أن ينفروا في سبيل الله:

ومصيبة عظمت وخطب فادح ذهلت له الألباب والأفهام
أضحى به الإسلام منفصم العرا يجنى عليه برفمها ويضام
كسفت له الشمس المنيرة واغتدى وجه الصباح وقد علاه ظلام[1]

وبعد استثارة الحمية والحض على نصر راية الإسلام وإذكاء العزم رفع الشاعر صوته في القصيدة نفسها مستغيثا بقوله:

يا ناصري الدين الحنيف أهكذا عنكم يجازى ديننا الإسلام

وقد سار الشاعر في كل أبيات القصيدة يستحث الهمم ويحض على مناهضة أعداء الإسلام، وفي كل ذلك يستمد معانيه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ولا عجب في ذلك فمصير المسلم في المعارك التي يخوضها لرفع راية الإسلام هو مصير المجاهد فإذا هزم أو قتل فله الجنة يقول الشاعر:

جنات عدن فتحت أبوابها لهم ومثوى حظوة ومقام
وعلى وجوههم البهية نضرة ال إجلال موصول بها الإكرام
فعلى نفوسهم الزكية رحمة من ربهم وتحية وسلام
باعوا النفوس فحبذا من مشتر رب لديه البر والإنعام
إخوان صدق منهم من قد قضى نحبا ومنهم من له يستام

وتجدر الإشارة إلى أن بعض شعراء الأندلس سخروا ملكاتهم وكرسوا معظم قصائدهم لخدمة المسلمين الأندلسيين في صراعهم مع النصارى الإسبان

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ٤٦/٥

ولم يتركوا أي وسيلة من وسائل التأثير أو أي دولة يُظن فيها العون للمسلمين إلا ولجأوا إليها؛ فكما استنصر ابن المرحل ــ السابق الذكر ــ بالمرينيين ملوك المغرب الأقصى استصر ابن الأبار أيضا وغيره من الشعراء بالحفصيين في تونس(١).

وقبل أن نختم وتعزيزا لما ذكرناه في متن هذه الدراسة من أن الشعر الذي تناول موضوع الصراع في الاندلس قد اتسم بسمة التدين والالتزام بتعاليم الإسلام؛ لا بد أن نقف على بعض المعاني التي تعبر بصدق عن أخلاق الشخصية المسلمة وسلوكها حتى في صراعها مع أعدائها، منها: معاني الود والحب والتسامح والإنصاف للعدو" فالاختلاف بين الملتين النصرانية والإسلامية على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية لم يقض تماما على بعض الفترات التي تسموا فيها النفس الإنسانية وتتخلص من أدرانها؛ لتعانق قيما من الحب والتسامح" (٢) ولعل الإنصاف أو التسامح في النصوص دافعه ديني خلقي تميزت به الشخصية المسلمة وظهر في سلوكها مع أعدائها والاعتراف بقدرتهم على الرغم من كل الأسباب التي تفرض عليهم الظهور بغير هذا المظهر، ولكن المبادئ الإسلامية والتربية الأصيلة والوفاء الإنساني والثقة الكبيرة بالنفس كانت تفرض عليهم هذا السلوك الذي ظل علامة بارزة من علامات مجدهم وعزهم ووفائهم ، فإذا كان العربي الجاهلي يصدر في إنصافه عن طبيعة متشبعة بالأخلاقيات والمبادئ الحميدة كإغاثة الملهوف وحماية الجار وإنصاف العدو كقول عنترة واصفا خصمه بالكريم الماجد:

ومدَجّج كره الكُماةُ نزالهُ لا ممعنٍ هربًا ولا مُسْتَسْلِمِ

(١) انظر أمثلة على ذلك: ديوان ابن الأبار، الصفحات: ١٠٦، ١٤٤، ١٨٤، ١٨٥، ٢٠١٥

(٢) شيخة، جمعة: في التسامح بين المسلمين والنصارى من خلال الشعر الأندلسي، مجلة دراسات أندلسية ١٩٩٥، العدد ١٤، ص٥

جادتْ يداي لهه بـعاجلِ طعْنةٍ بمُثقَّفٍ صدْقِ القناة مُقوّمِ

فشككتُ بالرمْحِ الأصمِّ ثيابهُ ليْسَ الكريمُ على القنا بمُحرّم (١)

وإذا كان الله قد أمر المسلم بالعدل في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢)

قلنا: إذا كان الأمر كذلك فإن هذا هو ما جعل الشعراء الأندلسيين ينصفون أعداءهم رغم الصراع المحتدم الذي يسوغ لهم استعمال أي أسلوب يشفي غليلهم للنيل من أعدائهم؛ ولا غرو في ذلك فهم في الأساس عرب انتقلوا إلى الأندلس متمسكين بعروبتهم وبمبادئ دينهم الحنيف، ومن ذلك قول أبي الحسن ابن تدرارات:

نقارع من أبطالهم كل محرب تعلم صدق الحمل جربه الدهر (٣)

وصف الشاعر الخصم هنا بالشجاعة والخبرة وشدة المراس في ميدان القتال. وإذا دارت رحى الحرب فإن كل فريق يسعى إلى النيل من خصمه بشتى الطرق والوسائل واستخدام كافة الأساليب، ومن الإنصاف أن يذكر الشاعر ما أوقعه الخصم بقومه وما أوقعوه بهم، وهنا يقول علي الجندي عن المنصفات(٤) في الشعر العربي " فإذا ذكر ما أوقعه قومه بالأعداء، ذكر ما

---

(١) عنترة بن شداد، ديوانه، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامين ١٩٦٤، ص٢٠٩

(٢) المائدة ٨

(٣) النميري، ابن الحاج: مذكرات ابن الحاج النميري، تحقيق ألفريد دي برمار، ص ١٥

(٤) ذكر الرواة أن منصفات أشعار العرب ثلاثة أشعار، فأولها قصيدة عامر بن معشرين أسحم ابن عديٍّ، والمنصفة الثانية لعبد الشارق بن عبد العزى الجُهني، والمنصفة الثالثة للعبَّاس بن مرداس السُّلمي. ينظر في ذلك:الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالديّين، تحقيق محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٢، ١٤٩/١-١٥٣

حدث لقومه من الأعداء، وإن وصف بأس قومه بقوتهم وبطولتهم، وصبرهم وثباتهم وأسلحتهم وما قاموا به من أعمال وأمجاد، وصف الأعداء كذلك من هذه النواحي، فكان الشاعر يتحدث في ذلك بما يقتضيه الحق والإنصاف، ولذلك سميت هذه القصائد بالمنصفات لأن الشاعر فيها ينصف الأعداء ويعطيهم ما يستحقون".[١] ومن ذلك في الشعر الأندلسي، قول ابن الجياب:

ولطالما نال العدا آمالهم فالآن أدرك فيهم المأمول

ولشد ما مطل الزمان ديوننا فاليوم قضَّى دينه الممطول[٢]

ولكي يثبت الشاعر أن انتصاره على عدوه ليس محض الصدفة أو أن انتصاره كان على خصم ضعيف؛ يبدأ في الإعلاء من شأن عدوه وإظهار بسالته ليعلي من قوته ويفخر بنفسه، ولهذا صور كثيرة في الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام [٣] كقول الشاعر "حرب بن مسعر":

وأوْجرتهُ لدْن الكعُوب مُقوّمًا فخرّ صريعًا لليدينِ وللفمِ

وغادرتهُ والدّمعُ يجري لقتلهِ وأوْداجُه تجري على النّحرِ بالدّم[٤]

ومن صوره في الشعر الأندلسي قول ابن الجياب:

عبروا وقد ضاق المجال بمأزق عمدت به الشجعان للشجعان[٥]

---

(١) الجندي ، علي: تاريخ الأدب العربي، دار التراث للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩١، ص٤٣٣

(٢) ابن الجياب، ديوانه، ص ١٦٧

(٣) للتوسع انظر: زعباط، مراد: تجليات الإنصاف في شعر صدر الإسلام، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد ١٠، ٢٠١٦، ص١٦

(٤) الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين ، ٦/١.

(٥) ابن الجياب، ديوانه، ص ٢٥٤

وهناك الكثير من النصوص التي تدل على التأسف من المسلم الأندلسي على العدو الإسباني بعد صرعه ، ومن ذلك قول الأعمى التطيلي في معرض مديحه لأحمد بن أبي الربيع، متألما لرؤيته وجوه الشباب النصارى التي شوهتها حوافر الخيل إثر معركة أقليش التي دارت رحاها بين المرابطين والنصارى الإسبان وكانت الغلبة فيها للمسلمين، يقول من قصيدة طويلة بلغت ثلاثة وخمسين بيتا:

وحتى تدوسَ الخيلُ أوْجُهَ فتيةٍ كرامٍ عليها غيرِ شُؤْمٍ ولا نُكْدِ

وتَخْرُجَ من ليلِ الغُبَار ولو ترى شوازبَ تَرْدي تحت صمانةُ تردي(١)

وبذلك تتضح صورة هذا اللون من الصراع الذي يعبر عن نقاء الإنسان المسلم وتمسكه بالقيم والمبادئ الإسلامية النبيلة والوفاء الإنساني حتى في تعامله مع أعدائه وهو ما دلت عليه النصوص السابقة.

(١) الأعمى التطيلي، ديوانه، ص٣١

الخَاتمةُ:

وبعدُ، فقدْ حاولنا في هذه الدِّراسةِ إلقاءَ الضَّوءِ على بعض صورِ الصراعِ في أبرزِ القضايا الاجتماعيةِ، والفكرية ،والمصيريةِ، والنفسيةِ التي شغلتْ بالَ الشاعرِ الأندلسيِّ، وتجلتْ في نِتاجِه الشعريِّ.

وقدْ كانَ للحياةِ الاجتماعيةِ والثقافيةِ بكلِّ ألوانِها، وتعدُّدِ عناصرِ المجتمعِ الأندلسيِّ، وازدهارِ العلومِ الفلسفيةِ والطبيعيةِ في بعضِ العصورِ الأندلسيةِ، وإجلالِ العلماءِ وتوقيرهم، والتعصبِ لمذهبِهم أو اتجاهِهم الفكريِّ من قِبلِ تلامذتِهم، ومحاولةِ إظهارِ التفوقِ على كلِّ مشرقيٍّ وافدٌ على الأندلسِ بالتأليفِ، أو بالمحاورةِ، أو بالمناظرةِ، كما كانَ للحروبِ المستمرةِ بيَن المسلميَن والممالكِ الإسبانيةِ الذينَ يتربصونَ بالمسلميَن فرصةً سانحةً؛ لإزالتِهم من الوُجودِ الأندلسيِّ، كُلُّ ذلكَ، وغيُره أَدَّى إلى تَعدُّدِ صورِ الصراعِ، وتباينِ أشكالِه التي تَجلَّتْ على الأدبِ الأندلسيِّ بصفةٍ عامةٍ، والشعرِ منه بوجهٍ خاصٍّ.

وإذا كانَ الشعرُ العربُّي أحدَ معالمِ هذه الأُمةِ، وسجلِها الحافلِ بتجاربِها، وحروبِها، ومعارفِها، وأخلاقياتِها، وقِيَمِها ، وعاداتِها، وتقاليدِها، فإنَّه قدْ أدى وظيفتَه في البيئةِ الأدبيةِ الأندلسيةِ من نقلِه لنا، وإعطائنا صورةً واضحةً للحياةِ الأندلسيةِ العامةِ بِكُلِّ تفاصيلِها، وجوانِبها المتناقضةِ منها، وغير المتناقضةِ، ولا غَروَ في ذلك إذا عَرفنَا أنَّ الشعرَ قدْ تغلغلَ في حياةِ الأندلسيينَ، وجَرى على ألسنةِ العامةِ والخاصةِ بما أُتيحَ لهم من أسبابِه، وتَوفُّرِ دواعيه التي حَرَّكتْ قرائحَهم، ومنحتهم صُورًا شعريةً، لا نَجدُها إلا عندَ الشعراءِ الذين يُضَاهَى بهم الفحولُ في المشرقِ والمغربِ.

ومن أبرزِ النتائجِ التي توصلنا إليها من خلالِ هذه الدراسةِ، ما يأتي:

١ــ أنَّ للصراعِ صُورًا كثيرةً، كحدوثِ التباينِ بيَن أيِّ أديبينِ، أو مفكرينِ، أو ناقدينِ، أو غيرِهم من المُنتميَن لأيِّ مجالٍ معرفيٍّ؛ فتُقدَحُ في هذه الأجواءِ شرارةُ الصراعِ، وتطلُّ إرهاصاتُ التعصبِ من كلا الطرفيِن فيُصوِّرها الشعرُ، وتَتَجلَّى في صورةِ مديحٍ لأنصارِ الاتجاهِ، أو هجاءٍ للخُصومِ وأتباعِهم، أو في صورةِ نثرٍ فنيٍّ أو تأليفيٍّ، مع الفرقِ في اختلافِ الدوافعِ :فكريةٍ كانتْ، أم نفسيةٍ، أم دينيةٍ، وأُسلوبِ الردِّ وآليتِه، والقالبِ الذي تُصَبُّ فيه هذه الأشكالُ الصراعيةُ.

٢ــ أثبتَ البحثُ أنَّ تمسُّكَ الشاعرِ الأندلسيِّ بالمبادئِ الإسلاميةِ، وتَحلِيهِ بالأخلاقِ العربيةِ الأصيلةِ؛ كانَ له أثرٌ بالغٌ في صِبغةِ معظمِ صورِ الصراعِ بصبغةِ الالتزامِ، وإحلالِ الوُدِّ، والإخاءِ، والمواطنةِ، والإنصافِ محلَ الكُرْهِ، والبُغضِ، والعداوةِ حتى معَ غيرِ المسلمينَ.

٣ــ كانَ من أبرزِ صورِ الصراعِ، وتعدُّدِ أشكالِه التي تجلَّتْ في الشعرِ الأندلسيِّ ذلك الصراعُ المتمثِّلُ بينَ المسلمينَ، وأهلِ البلادِ الأصليينَ، وكانت الروحُ الدينيةُ والقوميةُ في الذَّبِّ، والذَّودِ عن حِياضِ الوطنِ، والإسلامِ في العُدوةِ الأندلسيةِ هي السمةُ الغالبةُ لهذا الصراعِ.

٤ــ وُجودُ ثنائيةٍ واضحةٍ عندَ بعضِ الشعراءِ، تَمثلتْ في الجَمعِ بينَ التعصبِ، وتَبَعاتِه من ناحيةٍ، والإنصافِ، والتسامحِ، والحبِّ، والحريةِ من ناحيةٍ أُخرى.

٥ــ جاءتْ بعضُ صورِ الصراعِ مُتضمِّنةً العديدَ من اللَّمساتِ النقديةِ، وكان لِوُفُودِ بعضِ اللُّغويينَ المشارقةِ على الأندلسِ دورٌ واضحٌ في بُروزِ بعضِ أشكالِ الصراعِ التي تَجلَّتْ على الشعرِ الأندلسيِّ، وكانَ الدافعُ الرئيسيُّ فيها هو

سَعْيُ الأندلسيينَ الدائمُ إلى إظهارِ التفوق على كُلِّ مشرقيٍّ وافدٍ عليهم، وإثباتِ الذاتِ الأندلسيةِ في مُختلَفِ فرُوعِ المعرفةِ.

٦ــ وَقَفَ البحثُ عندَ صُورِ الصراعِ، وتَجلياَتِه في التُّراثِ الشعريِّ لشعراءِ الأندلسِ مع التعريفِ ببعضِ الكُتَّابِ الأندلسيينَ المُبرَزينَ الذي عَكسُوا الصراعَ بصورِه وأشكالِه على نثرهِم الفنِّي والتأليفيِّ، وهو ما سيكونُ عليه مَدارُ الحديثِ في بحثٍ قادمٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

واللهُ مِنْ وراءِ القصدِ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على سيدِنا مُحمَدٍ، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

المصادر والمراجع:

- ابن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، طبع دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢م.
- ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م .
- ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧.
- ابن تاويت، محمد: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، نشر دار الثقافة المغربية، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٣م.
- ابن خفاجة: ديوانه، تحقيق السيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٧٩م.
- ابن شريفة، محمد: تراجم مغربية من مصادر مشرقية : ، المغرب ، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٦م
- ابن عباد، المعتمد: ديوانه، تحقيق حامد عبد المجيد وأجمد بدوي، وراجعه طه حسين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م.
- إسماعيل، عز الدين: الفن والإنسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- أعراب، الطرايسي أحمد: الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي، المجلس الوطني للثقافة والفنون، المغرب،١٩٨١م.
- الأعمى التطيلي: ديوانه، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩م.
- بهجت، منجد مصطفى: الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م.
- الترغي، عبد الله المرابط: فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة (منهجيتها ــ تطورها ــ قيمتها العلمية) منشورات كلية الآداب، تطوان، ط١، ١٩٩٩م.

- جبران، محمد مسعود : أبحاث وتحقيقات في تراث الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط١، ٢٠٠٩م.
- الجراري، عباس: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، مكتبة المعارف، المغرب، ١٩٧٩م.
- الجزار السرقسطي، أبو بكر يحيى بن محمد: ديوانه، تقديم وتحقيق العربي سالم الشريف، دار شموع الثقافة، ليبيا ط١، ٢٠٠٣م.
- الجندي، علي: تاريخ الأدب العربي، دار التراث للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩١م.
- الدراسات العربية في إسبانيا، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي، مجلة الثقافة العربية، طرابلس، ليبيا ١٩٧٤م.
- ديوان أبي حيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٦٩م.
- السبتي، ابن رشيد: مل العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق أحمد الحدادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ٢٠٠٣م.
- عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧م.
- عنترة بن شداد، ديوانه، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامين ١٩٦٤م.
- القيسي، عبد الكريم: ديوانه، تحقيق جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة، بيت الحكمة، تونس، ١٩٨٨م.
- المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، ١٩٦٨م.
- مكي، الطاهر: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.
- الهرامة، عبد الحميد عبد الله: القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري .. الظواهر والقضايا والأبنية، دار الكاتب، طرابلس، ط٢، ١٩٩٩م.

- هيكل، أحمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥م.

الدوريات:

- بدوي، منير محمود: مفهوم الصراع: دراسة في الأصول النظرية والأنواع، مجلة دراسات مستقبلية، جامعة أسيوط، ع٣، ١٩٩٧م.
- حمدان، عبد الرحيم : صورة المدينة الإسلامية المحتلة في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين، مجلة جامعة النجاح، ج٢٣، ٢٠٠٩م.
- الرباعي، عبد القادر أحمد: شعرية الصراع في القصيدة الأندلسية القرن الخامس الهجري نموذجا، دكتوراة جامعة اليرموك، سنة ٢٠٠٥م.
- زعباط، مراد: تجليات الإنصاف في شعر صدر الإسلام، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد ١٠، ٢٠١٦م.
- شيخ إبراهيم، عمر راجح: التعصب الديني في القرنين الرابع والخامس الهجريين في الأندلس، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، ج٢٤، ع١، ٢٠١٦م.
- شيخة، جمعة: في التسامح بين المسلمين والنصارى في الشعر الأندلسي، مجلة دراسات أندلسية ١٩٥٥، العدد ١٤، ١٩٩٥م.
- عدمان، عزيز: قراءة النص الأدبي في ضوء فلسفة التفكيك، عالم الفكر، ٢٠٠٤م، ع٢، ج٣٣.
- المالكي، سعيد بن مسفر: ملامح الصراع في شعر ابن الجزار السرقسطي، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، ٢٠١٨، ج١٩، ع١.

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	ملخص	٢٨٦٢
٢-	Abstract	٢٨٦٣
٣-	المقدمة	٢٨٦٤
٤-	تمهيد	٢٨٧٠
٥-	ـ المحور الأول: الصراع الفكري والاجتماعي.	٢٨٧٢
٦-	المحور الثاني: الصراع بين المسلمين والنصارى الإسبان:	٢٨٩٣
٧-	الخَاتمةُ:	٢٩١٥
٨-	المصادر والمراجع:	٢٩١٨
٩-	فهرس الموضوعات	٢٩٢١

تم بحمد الله